اتجاه الصليبية الحديثة

من تزوير التاريخ على نطاق واسع - بدوافع من التعصب الأعمى - إنكار فضل العرب والإسلام على أوروبا وعلى حضارتها العلمية وتقدمها الفكرى والصناعى .

حتى إنَّ كثيراً من المتعلمين الحدثاء يجهلون أنَّ هناك أثراً ما لحضارة العرب فى حركة الإحياء التى عمت الغرب من بضعة قرون ونقلته من حال إلى حال !

وهذا الجحود المطبق لا يستند إلى أثارة من حق .

بل لا سناد له إلا الحقد على الإسلام وأهله ، ومحاولة انتقاص هذا الدين والغض من شأنه وتجريده من كل خير ، ثم إظهاره وكأن العالم لم يجن من وجوده إلا الشوك والحنظل !

وللكتّاب الصليبين جهد غير مشكور فى اشاعة هذا الزور .

فقد علّموا قومهم أنَّ « محمداً » ﷺ كلب كافر ! وأنَّ أتباعه همج مخربون ، وأنَّ دينه فى القرون السالفة لف الدنيا فى ليل ما له فجر !

ومع أنَّ ضياء الحقيقة الكبرى بدَّد هذه الأوهام ، وجعل الألوف المؤلفة من أصحاب النظر السليم يحتقرون مصدرها ويزرون عليه ، إلا أنَّ العوام وأشباههم من ضعاف الرأى لا يزالون يكرهون الإسلام ونبيه من آثار هذه الدعايات البذيئة .

وهم يظنون المسلمين أمة تعبد « محمداً » ﷺ . وتعالج نوعاً مبهماً من الطقوس الوثنية ، وتعاشر الرذائل بنهم ، وتكره المعرفة ، وتتنكر للحضارات ، وتقوم بتخريبها إن واتتها فرصة !

وإن كان لفيف من رجال الكنيسة القدماء والحدثاء ، يشتغلون بترويج هذه السخافات عن الإسلام ، فماذا نقول وبماذا نرد ؟

وإذا كانت صياغة التاريخ الإنسانى قد خضعت لهذا السقوط الخُلقى فكم من الجهود نبذل لنصحح الأوضاع ونجرف الأباطيل ؟

نحن نعلم أنَّ هناك أوروبيين استيقظوا من ضلالهم وأطرحوا هذا العبث فى تصور الإسلام وتاريخه .

بَيْدَ أنَّ الجماهير لا تزال تجهل حقيقة فضل الإسلام على العالَم منذ ظهر إلى يوم الناس هذا .

إنه لولا الإسلام - لبقيت أوروبا كما عاشت خمسة عشر قرناً لا تحسن شيئاً ألبتة من دين اللّه ولا من دنيا الناس .

نعم .. لولاه - لظلت الأحوال الخُلُقية والاجتماعية والعلمية والعملية كما غبرت طول هذه القرون جامدة بليدة ، ولبقيت « أوروبا » هذا الدهر الطويل -كما بقيت أواسط إفريقيا منذ القِدَم إلى أن أُكتشفت - تحيا على نسق واحد ويشملها - على اختلاف الليل والنهار - مستوى انسانى محدود .

لولا أنَّ الإسلام دخل « أوروبا » كما دخلت الحضارة الحديثة بلاد الزنوج ما عرف الأوروبيون شيئاً عن المدنية ، ولا نالوا قسطاً من ارتقاء .

والفارق بين الحالين أنَّ الإسلام لم يضن على الأوروبيين بنور يمشون عليه .

أما الغربيون فهم يُسخِّرون اليوم تفوقهم فى إذلال الآخرين واستغلالهم .

كان كل شئ فى « أوروبا » راكداً كالمستنقع الآسن ، وكان يمكن أن يبقى كذلك إلى يوم النشور لولا العرب الذين سكنوا الأندلس وجنوب إيطاليا ، وشرعوا يصدِّرون الرقى والازدهار إلى قبائل الغالة والقوط والوندال والسكسون والجرمان وإلي غيرهم من شعوب أوروبا .

إنَّ الأصول العقلية والنفسية للحضارة الحديثة لم تنبت من داخل أوروبا .

وكل مطلِّع على طبيعة الحياة الأوروبية فى الخمسة عشر قرناً الأولى للميلاد يُجزم بأنَّ أوروبا وحدها - بما تألف من أفكار ومشاعر - لا تستطيع أن تكون شيئاً يُذكر .

وأنَّه لولا ما وفد عليها من فكر خارجى وهِمَّة لا عهد لها بها ما استطاعت أن تتغير وترتقى .

لقد كانت الحضارة العربية - لأوروبا - ، كمواد الخصب ولجج الماء العذب بالنسبة للصحراء كي تزدهر وتنتج .

وإلا فستبقى الصحراء لا تنفح إلا السموم ، وستبقى أوروبا كما عاشت ألفاً وخمسمائة سنة بعد الميلاد لا تطفح إلا بالعمى والجهالة .. ولا تقدِّم لها النصرانية بصيصاً من نور وهداية .

ودعك من الكنود القذر الذى تواصى به الأحبار والرهبان لغمط هذا الفضل وإنكاره على ذويه .

على أنه كما وُجِد فى حاشية فرعون مؤمن ينكر ألوهيته ، وُجِدَ بين مفكرى أوروبا مَن أنصف العرب ونسب إليهم فضلهم المنكور ، وعاب على قومه هذا الجحود الغريب .

وإنني أوصي كل قارئ عربى بمطالعة كتاب « فضل العرب على الإنسانية » الذى ألفَّه « روبرت جريڤال » .

وسيبهرك فى هذا الكتاب الصغير أن تجد العرب هم وحدهم الأساتذة الذين علَّموا أوروبا ما لم تكن تعلم .

حتى لتحسب أنَّ ازدهار أوروبا الآن هو التكملة الطبيعية والامتداد العادى لرقى العرب الأوائل وطول باعهم فى شئون العمران وأصول الحياة .

وأن إنحطاط المسلمين الآن هو التكملة التبعية والامتداد العادى لجهالة أوروبا القديمة وقصورها الفكرى والاجتماعى .

ولا غرو فإن المسلمين من قرون طوال لم يُقدِّروا النعمة التى حبتهم بها المقادير فعبثوا بالإسلام وزاغوا عن هديه وناموا فى ضحاه الغامر .

كأولاد الغنى الذين ورثوا كنوزه دون كدح ، ثم شرعوا يبعثرونها بسفه .

على حين يوجد حولهم نفر من الفقراء الذين عرَّفتهم الحاجة قيمة المال ، فهم يحرصون عليه ويجمعون منه ما يُفرِّقه الورثة المخبولون .

وتمر السنون على تلك الحال فإذا أغنياء الأمس صعاليك .

وإذا صعاليكه ملوك .

ولا بأس على ملوك اليوم أن يختلقوا لهم أنساباً عريقة ، وأن يرموا خصومهم بكل موبقة ويجردوهم من كل شرف .

* * *

ولنلق نظرة على كتاب « فضل العرب على الإنسانية »

إنَّه يتسم بالطابع العلمى المجرَّد .

وإن كان صاحبه لم يخلص كل الخلوص من بعض رواسب البيئة التى عاش فيها فانساق - دون تعمد ودون غرض - إلى إرسال بعض الأحكام على الإسلام.

لم يطرد فيها - للأسف - النسق العلمى الجميل الذى شاع فى سائر بحثه ، والذى ترقرق فى فصوله كلها طولاً وعرضاً .

بَيْدَ أنَّ هذه الهنات لا تمنعنا من تقدير الحقيقة العظيمة التى جلاها هذا المؤلف الكبير وأبرزها فى إطار من الأدلة الحاسمة دلت على سعة نفسه واستبحار علمه وشمول نظرته ونقاء صحيفته .

تلك الحقيقة هي فضل العرب على التقدم العلمى فى الغرب وأثر حضارتهم الزاهية فى حركة البعث التى أحيت أوروبا من موت طويل .

لقد ظلت أوروبا سبعة قرون قبل ظهور الإسلام وثمانية قرون بعد ظهوره ، وهى لا تعرف شيئاً طائلاً عن فلسفات العالَم القديم ، بله أن تستفيد من هذه الفلسفات فى رفع مستواها الذهنى ودعم مكانتها الأدبية .

ثم تحركت « أوروبا » وبدأ عصر النهضة يهزها من سُباتها .

فما الذى جَدَّ عليها ؟ وما الذى بدَّل حياتها من جهل إلى علم ، ومن ظلام إلى نور ؟

يقول أصحاب الغرض ومنكرو الفضل : إنه تراث يونان وأثر أثينا وروما ...

عجباً .. فقد كان ذلك أجمع ركاماً مندثراً فى أعماء الماضى ظللتم بإزائه دهراً طويلاً فما حبسكم عنه ؟ وما منعه عنكم ؟ .

يقولون : لقد جاء به إلى الغرب علماء دولة الروم الشرقية بعدما سقطت عاصمتها فى يد الترك ومنذ هاجروا بدأ عصر الإحياء .

نقول : لقد ظلت دولة الروم الشرقية ومعها هذا التراث ألفاً من السنين فما صنعت به ؟ إنها ما رفعت به رأساً ولا أعلى مستواها المادى والأدبى فى قليل ولا كثير .

الحقيقة التى أراد الغرض السىء - أو الحقد الردىء - أن يطويها هى فضل العرب على الإنسانية كلها وعلى الفرنجة خاصة .

إنَّ نهضة العرب الكبرى إبَّان العصور الوسطى كانت الأصل الأول لحركة البعث العلمى والإصلاح الاجتماعى والمدنى فى أوروبا .

وإنَّ الأندلس وجنوب إيطاليا وشرق أوروبا كانت معابر فيَّاضة بالنشاط الإنسانى الراقى لتمدين بلاد غبرت عليها العصور وهى لم تتذوق طعماً للمدنية بعدما طاحت روما وأثينا وعفى على آثارهما الزمن .

ونحن نستغرب هذا الكنود ونرى لزاماً علينا أن نُذكِّر أبناءنا به لا لشىء ، إلا ليعلموا ما لهم من حقوق ، وما تكنه أفئدة الآخرين من عقوق وحسب .

ويسرنا أن يوجد علماء منصفون من رجالات الغرب يروون الحقيقة العلمية غير مشوبة بلوثات التعصب الأعمى .

ومن بين هؤلاء العلامة « روبرت بريفالْ » الذى ملأ كتابه بالأدلة القاطعة على ما للعرب من أياد سابغة أهلهم لأدائها تفوقهم العظيم على العالَم كله يوم كانت أزِمّة العالَم فى أيديهم ..

فهذا العالم المنصف يستعرض تاريخ أوروبا فى القرون الأولى للميلاد إلى عصر النهضة الحديثة استعراضاً مستوعباً نفاذاً ، ثم يجزم فى ثقة العالِم

المستبصر - بأنَّ المقدمات التى تُنتزع من دراسة هذا التاريخ يستحيل أن تنتج ما يدَّعيه بعض المدعين من أن النهضة الحديثة كانت جنيناً تم تكوينه فى أحشاء أوروبا . كلا . كلا ...

إنها نهضة مجلوبة البذور من الخارج ، واسمع ما يقول :

« إنَّ النور الذى اشتعلت منه الحضارة مرة ثانية لم يُشرق من جذوة الثقافة اليونانية الرومانية التى استخفت بين خرائب أوروبا ، ولا من الحى الميت على البسفور (يعنى بيزنطة) ..

إنه لم يظهر من الشمال ولا من الهاجمين على الامبراطورية من الجنوب . بل بزغ من العرب » ...

ثم يقول : إنَّ النهضة الحقيقية لا ترجع إلى القرن الخامس عشر فحسب ، بل إلى تأثير العرب والمغاربة فى إنهاض الثقافة .

ولم تكن إيطاليا مهداً لحياة أوروبا الجديدة بل الأندلس (أسبانيا) .

لأن أوروبا - بعد هبوطها المتواتر فى الحالة الوحشية من أدنى إلى أسفل - كانت قد بلغت الأعماق من الجهل والفساد ، بينما مدن العالم العربى « بغداد » و « القاهرة » و « قرطبة » و « طليطلة » كانت وحدها مراكز الحضارة والنشاط العقلى ...

ومن ثَمَّ ظهرت الحياة الجديدة التى نمت فى شكل ارتقاء إنسانى جديد ...

ومن امتداد الزمن الذى أثَّر فيه نفوذ ثقافتهم بدأت الحياة الجديدة تتحرك ...

ثم قال : وهنا أمر قد ذُكِر مراراً ولكنه مع هذا قد أهمل بالعناد واستخف به الإصرار .

إنَّ دين أوروبا « للكلب الكافر » طبعاً لم يجد محلاً فى نسق التاريخ المسيحى ... والتزوير الموصول قد غلب جميع التصورات اللاحقة ...

حتى المؤرخ « چيبون » قد عامل الإسلام بما لا يستحقه .

وهذا مثال لسلطان التقاليد العُرفية على أفطن مخالفيها .

فلم يكن هناك إلى القرن الماضى شئ يوصل إلى العلم الصحيح بتاريخ العرب وثقافتهم ..

وأما التقارير التى نُشِرت عن محمد (عليه الصلاة والسلام) ، وعن « الإسلام » قبل بداية القرن التاسع عشر ، فإنها تستحق أن تُعتبر تحفاً أدبية محضة (١) .

واليوم كذلك حين سهل الوصول إلى أصح العلم وأوسعه يندر أن يعترف تاريخ من تواريخ القرون الوسطى برعاية الثقافة الإسلامية للعِلم إلا اعترافاً موسوماً بالتحقير .

إنَّ تاريخ بعث « أوروبا » من مواتها قد كُتب دائماً دون إشارة إلى نفوذ الحضارة العربية اللّهم إلا بيان « فوز الصليب على الهلال » أو « مطالبة أسبانيا بالتحرر من نير العرب » ...

كما أنَّ الدكتور « أوسبرن تايلر » قد أتم - ببراعة - مجلدين كبيرين عن نشوء العقل فى القرون الوسطى ولكن من دون تنويه ما - بوجود الثقافة الاسلامية ولا بآثارها العظيمة » !!!

* * *

ونحن لا ندرى متى ينتهى حقد « أوروبا » .

ونعجب لاطراد هذا الأسلوب فى غمط حقنا وجحد فضلنا ... !

وقد تكون ميادين السياسة ملأى بالأطماع والمآرب الصغيرة .

لكن أما كان الأجدر بميادين العلم أن تتنزه عن أحقاد الساسة وهى تخط تاريخ الإنسانية ؟

---

(١) انظر تاريخ القرون الوسطى فى سلسلة تاريخ كمبردج .

ثم إنَّ الإسلام فتح ذراعيه للعلماء من كل دين ! ورفع مكانتهم فى بلاده دون تحرج .

بل إنَّ الاسلام ترك لكل ذى هِمَّة من أبناء الأديان الأخرى أن يتابع نشاطه وأن يظفر بثمار جهوده من غير تنقص ولا هوان ...

أفما كان يجب أن يلقى مثل هذه المعاملة أو بعضها .. !

إنَّ الأستاذ المؤلف لا يسعه إلا الاعتراف بهذه الحقيقة فى كتابه حيث يقول : « إنَّ اليهود كانوا يشتركون تحت التسامح التام من قِبَلِ حكومة العرب فى الارتقاء الثقافى لدولة الخلافة » ..

وعندما انتشروا فى أوروبا على الأخص بعد انتصار الموَحِّدين ، حملوا تلك الثقافة إلى أبعد أراضى البرية ...

ونحن نجد أنهم كانوا يُعلِّمون ويتباحثون بحرية مع ساكنى الصوامع المنعزلة الذين غلب على تعصبهم الدينى إعجابهم بتلك العلوم العربية ...

فرهبان فرنسا وألمانيا كانوا ينالون منهم كتب هذه العلوم الجديدة حتى الراهبات المتعلمات فى صومعات « نورنجيان » مثل : « هيلديجارد » الشهيرة و « هروسوتيا » لم تزورا عن الاستفادة من علومهم .

وقد أنشأنا مدارس كثيرة فيما بعد مثل مدرسة « كيم هيس » و « بن عذرا » فى « ناربون » حيث كانت العلوم العربية رائجة والعناية بترجمة الكتب العربية قائمة .

وكثير من اليهود تبع « وليم النورماندى » إلى انجلترا ونالوا حمايته .

وبنوا هناك لأول مرة البيوت الحجرية التى يمكن أن تُشاهَد إلى الآن فى « لنكولن » و « سان اندموند سيرى » ثم أنشأوا مدرسة للعلوم فى أكسفورد...

وبإشراف خلفائهم فى مدرسة « أكسفورد » - هذه - تعلَّم « روجر بيكون » اللغة العربية والعلوم العربية ..

* * *

أقول : وأثر العرب المتغلغل فى الفكر الأوروبى ، لا يقل عنه أثرهم فى التقدم العمرانى والارتقاء الفنى .

إنَّ هؤلاء المتدينين القدامى من حملة الإسلام هم أصحاب اليد الطولى فى إيقاظ اقتصاديات أوروبا !!

يقول المؤلف تحت عنوان « تجديد أوروبا » :

« إنَّ الحركة الصناعية والتجارية للشرق وللعرب فى الأندلس وصقلية هى التى خلقت تجارة أوروبا وصناعاتها » .

ومنها تقدمت الثروة وتضاعفت القوة لطبقات التجار ، ونشأت المدن التجارية ثم تقوت الهيئات النيابية إلى أن اشتبكت بسلطات النظام الإقطاعى فنشأت قوة جديدة للجمهوريات الحرة ومجالس الشورى قوَّضت ظلم النظام البارونى وعدوانه .

وهكذا دخلت الحرية السياسية والنظم أوروبا مثل دخول الثقافة مع رزم الأمتعة من سواحل بحر الروم الشرقية .

وقبل أن تنمو التجارة والصناعة ، وقبل أن تكبر المقاطعات فى الجوهر والمعنى بواسطة التجارة الشرقية لم يكن هناك مجال للثروة ، ولا كانت هناك المدن .

إن المدن على سواحل « قلطالونيا » و « برانس » كانت أولى تقدماً وأبرز فى الأهمية والحياة بوساطة الاتجار مع العرب..

وكانت الجمهوريات المستقلة قد تأسست فى « مارسيليا » و « آرل وينس».

والمصدر الذى صدرت منه تلك الثروة من أقدم الزمن يمكن أن يُستنبط من بيان بطريرك أورليانز « ثيوذولف » فى وصف رحلته إلى جنوب فرنسا بوصف كونه أحد موفدى شارلمان ، إذ يقول هذا البطريرك :

« إنه عند وصولنا إلى مرسيليا جاء الناس من الرجال والنساء والأولاد والشيوخ أفواجاً أفواجاً حاملين معهم هدايا مقتنعين بأنهم يُقدِّمونها إلينا ليقضوا بُغيتهم

فأحدهم كان يقدّم البلّورات واللآلئ الشرقية ...

والثانى كومة من قطع الذهب كانت تلمع عليها حروف وعبارات عربية .

والثالث كان يقول : عندى ثياب عربية لا يمكن أن يكون أى شئ آخر أحسن منها فى ثبات اللون وجودة الصناعة ...

والآخر كان يرينا جلوداً مدبوغة من قرطبة .. بعضها أبيض ناصع ، وبعضها أحمر قان ، بينما الثانى كان يقدّم لنا السجاجيد ..

لله ما كان أعظم تقدمنا » .

* * *

ونتمنى أن يقع الكتاب بين يدى القارئ حتى يستطيع أن يستبين من سطوره أطراف الموضوع كله فى إيجاز ودقة ووفاء .

وتلك خطة فى حرية البحث تُحمد للمؤلف الكبير وتُعَد فى مجال الصدق العلمى مثلاً يُحتذى ...

والمترجم السيد « أبو النصر الحسينى » مسلم هندى فاضل تعرّض للترجمة حتى أخرجها فى هذا الثوب الحسن ...

ثم تتبع بتعليقات يسيرة بعض الأفكار التى التبس فيها الأمر على صاحب الكتاب فشرحها على ضوء ما يعرف المسلمون دينهم من مصادره وحدها .

وأملنا أن تتحقق بنشر هذا الكتاب غاية كريمة لا يختلف عليها الناس ، وإن تباينت مذاهبهم وأهوائهم ...

إنّ الحقيقة التى يحاول التعصب طمسها - ولن يتيسر له ذلك - هى أنّ العرب وصلوا ما انقطع من تفكير الإنسانية الراقى ، وتناولوا تراث الأقدمين العقلى والروحى بعناية ، فصوّبوا ما يستحق التصويب ، وخطّئوا ما يستحق التخطئة ..

وأنَّ ظهورهم كان يُمناً على العالَم ، وبركة فى هذه الأرض ..

وأنَّ أوروبا لم تستفد منهم ما دعم كيانها المادى والأدبى فحسب .

بل ما خلقها خلقاً جديداً لم يخطر على بال سكانها القدماء ، خلقاً لم تكن لتتهيأ له قط لو وُكِّلت إلى نفسها وتُركت مع ظروفها ..

لكن فضل الإسلام على أقطار الدنيا شئ تضيق به الكنيسة أشد الضيق وتسخط عليه السخط كله ..

وهى فى يوم الناس هذا تبذل كل ما أُتيح لها من وسائل الدعاية لتوهم الأجيال الجديدة أنَّ الإسلام دين لا يستحق البقاء ..

وأنه يجب القضاء على أهله ورمى آمالهم بالخيبة ، وقضاياهم بالفشل ، وحظوظهم بالنحس .

وأنَّ الإسلام - فى حاضره القريب - مرهوب العدوان ... مخوف التعاليم !

وأنه - فى البعيد - قليل الخير قريب الظلم ...

ومن ثَمَّ ينبغى الخلاص منه بأى وسيلة ...

وبهذا المنطق المسود الغشوم الجحود يراد تصوير تاريخنا ، وتصور ديننا ، ومعاملة الألوف المؤلَّفة التى تعيش به راضية وتنعش العالَم بتقاليد النبل والفضل ، هذه التقاليد التى نحيا فى نطاقها من قرون ...

الحق يقال : إنَّ أضغان الصليبية على الإسلام وأهله أعيت المداوين وانتشر سوادها فى الأولين والآخرين ..

وما بد من أن يفتح المسلمون عيونهم ، ويأخذوا حذرهم ..

وفى الحرب الباردة الناشئة الآن بين الشرق والغرب ، أراد « الجنرال أيزنهاور » أن يتلطف مع العرب ، وأن يتألف قلوبهم رجاء ضمهم إلى جانبه .

فاعترف بشئ من فضل العرب الأولين على المدنية الحديثة . وأشاد بما قدموا للعلم من أياد مذكورة .

والرئيس « أيزنهاور » هو قائد الولايات المتحدة ، إحدى الدول الكبرى الثلاث التى تحمى إسرائيل بعد اقامتها من الوهم .

ويسرنى أن أثبت تعليق الدكتور « سعيد عبده » على هذه الشهادة ..

قال : أعجبنى فى كلمة الرئيس « أيزنهاور » أمام الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة قوله : « إنى عندما أنظر إلى المستقبل أرى دولاً عربية تبرز ، وتُسهم فى أمور هذا القرن إسهاماً يفوق ما نستطيع أن ننساه لأسلافنا الماضين .

إننا ما زلنا نذكر أنَّ علم « الحساب » وعلم « الجبر » الحاليين مدينان بالكثير إلى العلوم الرياضية العربية . كما نذكر أنَّ العرب قد وضعوا أسس العلوم الطبية والفلكية التى يتمتع بها الغرب الآن .

وفوق ذلك .. فإننا نذكر أنَّ الشرق الأدنى كان مهبط الديانات الثلاث » .

إنها كلمة حق جاءت متأخرة بعد إنكار طويل يكاد يكون متفقاً عليه بين الكُتَّاب الغربيين ، إنكار لفضل العرب على حضارة العصر الحديث .

إنَّ الوسام الأكبر الذى كان هؤلاء الكُتَّاب يُنعمون به على العرب . هو أنهم سُعاة بريد بين حضارتين ، أى مجرد مترجمين ونسّاخين لحضارة الإغريق .

بَيْدَ أنَّ هناك - إلى جانب أفضال العرب التى ذكرها الرئيس « أيزنهاور » - فضلاً آخر لم يتنبه إليه الرئيس .

وربما كان فى الظروف الدولية الحاضرة - أولى بالذكر والتنويه - من الفلك والطب والكيمياء والجبر والحساب .

وهذا الفضل هو أنَّ العرب هم الذين وضعوا سياسة « سيف المُعِّز وذهبه » .

هذه السياسة التى حاولت الدول الغربية كما يحاول الرئيس « أيزنهاور » الآن فرضها على العرب فى مشروعه الأول الذى مات فى عمر الزهور .

وفى مشروعه الثانى الذى ابتُلى بالإجهاض يوم الحمل .

إنَّ الدول العربية تُدرك تماماً ما وراء السيف والذهب .

إنها عملة ضُرِبت عندنا منذ قديم الزمن - ومن المحال أن تخدعنا مهما بُذِلَ فيها من زيف وتمويه .

والدول الغربية التى ما زالت تحاول فرض هذه السياسة على العرب . سياسة الإرهاب والرشوة ، أو الرفاهية فى الأقفاص الذهبية ، والأغلال المصنوعة من الحرير .

إنما تحاول أن تبيع « التمر » فى أسواق « مكة » أو أسواق « بغداد » .

* * *

الإسلام طريد القانون الدولى

إنَّ التدين المريض إذا تسلَّط صنع المآثم ، وإذا تعصَّب عمى عن القيم كلها ، ولم يعترف لخصومه بحمى يأوون إليه .

ونحن - المسلمين - نسائل مَن سبقونا من أهل الكتاب : إنَّ اللّه واهب الحياة لنا ولكم ، فكيف تتستكثرونها علينا ؟

ومَهَّدَ الأرض لنا ولكم ، فكيف تحتازونها دوننا ؟

ومنحنا وإياكم الفكر ، فكيف ترضون لأنفسكم ما ترون من رأى وما تذهبون من مذهب ، ثم تغضبون أن نرى ما لا ترون ، وأن نذهب إلى غير ما تذهبون ؟

مَن الذى خصَّكم بالعصمة ، وأخطاؤكم زحمت البر والبحر ؟ !

وهبوا أنَّ الحق تاهت معالمه بيننا وبينكم ، فلماذا لا نلتقى على خطة سواء ، تسع كل امرئ وما يعتقد ؟

يا قوم .. ماذا يصنع المسلم إذا كنتم تُرخصون دمه ، وتُهدرون كرامته ، وتعوقون دعوته ، وتسوئون سُمعته ، ولا ترضون منه إلا أن يدع دينه ، وهو يوقن من أعماق قلبه بصحته وسلامة منهجه ، ورضا رب العالمين ؟

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [1] .

هل يصدق القارئ أنَّ أحقاد أوروبا على الإسلام لم تهدأ فى قرن من القرون القديمة أو الحديثة ، وأنَّ عاطفتها هذه ضد الدين النقى الطيب ، قد ترجمت عنها فيما شرعت من قوانين ، لا لتعاقب بها المسلمين كأفراد ، بل لتنكر وجودهم الإنسانى كجماعات ودول . !

---

(١) آل عمران : ٩٩

إنَّ هذه هى الحقيقة الكالحة .

ولقد رُسمت هذه الخطة ثم وُكِلَ إلى القادة العسكريين والزعماء السياسيين ، وإلى حشد هائل من رجال القلم ودهاة الأمم أن يُنفذوها فى أمد يطول أو يقصر حسب الظروف المتاحة والمقاومة المتوقعة .

ونجحت « أوروبا » ومعها « أمريكا » فى إلحاق نكبات فادحة بالإسلام ، كما استطاعت نفث دخان كثيف فى آفاقة وإلحاق أذى كثير بسمعته .

ونجحت « أوروبا » ومعها « أمريكا » فى تخسير القضايا الإسلامية وإسقاط قيمتها فى المجال الدولى .

بل إنهما بعد أن تآمرتا على ذبح المسلمين فى فلسطين - لأنهم مسلمون فحسب - حظرت عليهم أن يرسلوا أنيناً أو يُقدِّموا شكاة بهذا العنوان البغيض ، عنوان الإسلام المضطهَد المستباح أهلوه .

فليتظلموا مما أصابهم باسم العروبة مثلاً .

وفى هذه الحالة يُقبل التظلم شكلاً ولكنه يُرفض موضوعاً .

أجل .. يُقبل شكلاً احتراماً لمراسم المدنية الحديثة .

ويُرفض موضوعاً لأن سحق المسلمين ، ومحو دينهم من العالَمين هدف استعمارى يتواصى الكل بضرورة الوصول إليه .

وقد رأينا « أوروبا » و « أمريكا » يتخذان للقضاء على الإسلام الخطة الآتية :

١ - كان الخليفة العثمانى - يشبه بابا روما - فى أنه رمز دينى لمئات الملايين من الأتباع المنتشرين على الأرض .

وقد أمكن فى الحرب العالمية الأولى طرد الخليفة والقضاء على الخلافة ومحو هذه الشارة التى تترابط على بريقها الباهت فلول الإسلام المهزوم .

٢ - اتجهت جهود الاستعمار بعد ذلك إلى تفكيك الأمة الاسلامية حتى يتلاشى كيانها المادى والأدبى .

فقسّمها إلى عشرات من الدول الصغيرة ، وأقام بين كل دولة وأخرى حدوداً لا تعدوها ..

٣ - جعل القومية الخاصة شعار كل دولة من هذه الدول المصنوعة .

ومنع - فى صراحة حيناً وفى التواء حيناً آخر - أن يكون الإسلام روحاً للدولة أو دعامة لنظمها .

٤ - حظر الاحتكام إلى قوانين الإسلام فى الشرائع المدنية ، والجنائية ، والتجارية وما إليها .

وترك قوانين الأحوال الشخصية ريثما تسنح فرصة للقضاء عليها هى الآخرى .

٥ - فصل الدين عن التعليم العام ، ليخلق أجيالاً مبتوتة الصلة بالإسلام ، أجيالاً تتردد بين الجهل به والجحود له .

٦ - فصل الإسلام عن تقاليد المجتمع فى البيت والشارع والأماكن العامة والخاصة ، حتى ينظر إلى الإسلام وكأنه الآثار القديمة التى يجب اطراحها ، أو يمكن الاستغناء عنها .

٧ - تمكين الآفات العلمية والخُلُقية من نهش الإسلام ونقد أصوله وفروعه والعبث بمقدساته وشعائره ، مع إبراز الأديان والمذاهب الأخرى فى إطار من الهيبة والكرامة ..

والواقع أنّ الاستعمار لم ينقطع له دأب ، منذ احتل بلادنا كى يحيل الإسلام ركاماً من الأنقاض ، وأهله أوزاعاً من العبيد ، وبذلك يخلص منه ومنهم على السواء .

ولو أنّ الأمور سارت وفق ما يشتهى لكان الإسلام اليوم أثراً بعد عين .

إنّ عناية الله أدركتنا قبل أن ينتهى ديننا وننتهى نحن معه .

وقد لحقتنا هذه العناية والمعركة بين المغيرين والمدافعين تنتقل على عجل من دور إلى دور ، وتأخذ صوراً شتّى .

ومن الخير أن نستبين مواقفنا استبانة جيدة .

فإنَّ الأمة الإسلامية المترامية الأطراف إن كانت قد أحرزت مكاسب قليلة هنا وهناك ، فالحقيقة المريرة لا تزال قائمة .

وهى أنها ضعيفة الأخذ لنفسها وسط عداة يُضيّقون عليها الخناق وينسجون لها الأكفان .

إنَّ « ريتشارد » و « لويس » وغيرهما من قادة الصليبية القديمة قد عادوا للحياة مرة أخرى يحملون أسماء غير الأسماء .

ولكن أحقادهم واضحة ونيَّاتهم لائحة ، وخططهم لم يُغيِّرها إلا فارق من الزمن فحسب .

ما بُدّ من أن نراجع أنفسنا وأحوالنا ، وأن نحصى مغارمنا ومغانمنا ، وأن نتفرس فى ملامح خصومنا ونتغلغل فى طواياهم حتى نبنى دفاعنا المستقبل على ركائز قويمة .

الأخطاء التى ارتكبها أسلافنا فسقطوا لا يجوز أن نقع فيها .

والحيل التى جرَّبها أعداؤنا فظفروا لا يجوز أن ننخدع بها .

لقد كنا كجسم فارغ رائع ، نشبت فيه حمى مهلكة ، ما يصاب بها أحد وينجو .

إلا أنَّ الداء الذى طوى العماليق نجانا الله منه ، والاستعمار الذى أباد أجناساً أخرى فى قارات الدنيا بطل كيده عندنا .

وأفلحت الأمة الإسلامية في استرداد سلامتها منه ، وهى لما تزل من عقابيل العلة تجاهد فى طلب العافية التامة .

ونحن لا نريد أن تعروها نكسة ، أو يُؤخِّر شفاءها تهاون .

ولذلك نكتب هذه الكلمات ، استقصاءً لأسباب العافية وتتبعاً لأعراض المرض وجراثيمه ومكامنه ومساربه حتى نبرأ إلى الأبد منه .

* * *

برنامج للارتداد

كان بالنا - نحن المسلمين - خالياً حين استقبلنا هذا العصر . وكان تفكيرنا قريباً ، وأخذنا للأمور من أيسر جوانبها .

وصحيح أننا وجدنا الأوربيين جاسوا خلال ديارنا ووضعوا أيديهم على مقاليدها وغصبونا كثيراً من الحُرِّيات والحقوق التى تقررها الفِطرة لنا .

بَيْدَ أنَّ ذلك - كما فهمنا بادى الرأى - كان غلب القوى على الضعيف .

وللغلب المادى منطق حيوانى يؤذى المشاعر ، ولكن علاجه قصير ، والخلاص منه تقرره جولة أو جولتان .

لم تكن المشاعر التى صرفت الناس فى القرون الوسطى تمر بأذهاننا .

أعنى : لم تكن الخصومة بسبب الدين مظنة الجور علينا واحتلال أرضنا .

كذلك كنا نفكر .. حتى صحونا من منامنا ، أو استفقنا من بلاهتنا ، فوجدنا الأوربيين الغزاة يطوون أفئدتهم على جميع المشاعر التى حركت أسلافهم الأقدمين حين حاربونا باسم « الصليب » زهاء قرنين من الزمان .

إنهم هم هم ، بغضاؤهم للإسلام لم تنقص ، بل ظلت فى نماء ، وسخطهم على أهله لا تزيده الليالى إلا ضراماً .

كل ما أفادوه من تقدم علمى فى إبَّان غفوتنا الأخيرة ، أنهم غيَّروا الوسائل وأضافوا إليها مقداراً أكبر من الختل والخبث ، وطوَّروا السلاح ليجعلوه أشد فتكاً وأوسع هلكاً . ثم حشدوا كل ما لديهم ليُجهزوا - فى سكون أو ضجيج - على الكتاب والسُّنَّة ، أى على رسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم عدوهم الألد .

ثم ليمَزقوا أمته شر ممزق ، فيسلطوا عليها من صنوف البلاء ما يجعلها تتعثر فى طلب النجاة دون جدوى .

إنَّ الأمة الإسلامية ظلت دهراً ، وهى فى نظر الغرب لا يُعترف لها بكيان أدبى ولا تتوارث الأجيال غير كراهيتها والسطو عليها .

صحيح أنه قام الآن بناء للأمم المتحدة يسوّى فى عنوانه بين أهل الأرض .

ولكن هذا العنوان شئ غير ما يُخفى تحته .

إنّه يعتبر قيام « إسرائيل » على أنقاض العرب حقيقة محتومة .

ويرى الدفاع عن وجودها قانوناً مُلزِماً .

ويرى عودة أهل « فلسطين » إلى بلدهم أمراً ضد النظام العالمى والأمن الدولى !

إنَّ هذا التفكير بقية من ضغائن الغرب على الإسلام وأتباعه ، وهى بقية تنكمش الآن أمام الظروف المحرجة .

وعندما تواتيها الفرصة ، فسوف تمتد لتجتاح أقطار الإسلام كلها .

وهناك الوضع القانونى « لدار الإسلام » كما شرحه الدكتور « محمد حافظ غانم » فى كتابه « المجتمعات الدولية الإقليمية » [1] تحت عنوان : « العائلة الدولية كانت تستبعد دار الإسلام من حظيرتها »

قال : « ومنذ نشأة القانون الدولى الحديث كان من المقطوع به اعتبار الإسلام خارج نطاق العلاقات الدولية ، وعدم الاعتراف بتمتع الشعوب الإسلامية بالحقوق التى يقررها هذا القانون [2] .

وعلى هذا الأساس لم يكن الفقهاء الأوروبيون راغبين فى اعتبار الدولة العثمانية جزءاً من الجماعة الدولية .

---

(١) المقرر على « معهد الدراسات العربية العالمية بجامعة الدول العربية » .

(٢) راجع (Majid Khadur) المقال السابق ص ٣٦٢

فـ « جروسيوس » [1] أب القانون الدولى قال بوجوب عدم معاملة الشعوب غير المسيحية على قدم المساواة مع الشعوب المسيحية .

ومع أنه يرى القانون الطبيعى يُجيز عقد معاهدات مع أعداء الدين المسيحى إلا أنه نادى بتكتل الأمراء المسيحيين ضد أعداء العقيدة .

و « چنتيس » [2] هاجم « فرنسوا الأول » ملك فرنسا لعقده معاهدة مع السلطان سليمان العثمانى فى سنة ١٥٣٥ م

مع أنَّ هذه المعاهدة أقامت سلاماً بين الدولتين مدة حياة الملكين .

وأعفت الرعايا الفرنسيين من دفع الجزية التى كانت مقررة على غير المسلمين إذا ما أقاموا فى دار الإسلام ، ومنحتهم امتيازات دينية وقضائية .

وذلك على أساس أنَّ هذه المعاهدة تقيم تعاوناً بين ملك مسيحى ، وبين غير المؤمنين [3] .

بل لقد ذهب فقهاء آخرون إلى أنه من الممكن إقامة سلام دائم فى أوروبا على أساس تكتيل الدول المسيحية ضد العثمانيين .

---

(١) راجع : Grotius - Glo . II . Lib « De Jure Belli ac Pacis » سنة ١٦٢٥ ، وراجع أيضاً : Wallser - « Aj'history of the law of Nations » سنة ١٨٩٨ جزء أول ص ٣٠٠ و ص ٣٠٦

(٢) راجع : Gentilis Wallsr - De jure Belli Lib I . C . R سنة ١١٥٨ - المرجع السابق ص ٣٥٤ - ٣٧١

(٣) انظر : Hill opment - (A'history Diplomacy in the futernational devel) of Europe . نيويورك سنة ١٩٠٦ ص ٤٣٥ - ٤٣٩ .

فظهرت عدة مشروعات من هذا النوع فى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر كمشروع « ويليام بن » [١] ومشروع « الكاردينال البرونى » [٢] .

كما أنَّ الدول الأوروبية من ناحيتها لم تكن راغبة فى إشراك « الدولة العثمانية » فى العائلة الدولية .

فحيثما وضعت أسس القانون الدولى فى مؤتمر « وستفاليا » سنة ١٦٤٨ لم تشترك الدولة العثمانية فى هذا الشأن .

وفى القرن الثامن عشر تبيَّن للدول الأوروبية ضعف قوة الدولة العثمانية وتنافست فيما بينها على التهام أملاكها .

ولم يكن من مصلحتها أن تمنح هذه الدولة الحقوق للدول فى القانون الدولى العام .

بل إنَّ الدول الأوروبية فى تعاملها مع الشعوب الإسلامية كانت تنظر إليها كجماعات همجية غير جديرة بالتمتع بقواعد قانون الحرب [٣] .

لقد اعتبر الاستيلاء على أراضى المسلمين عملاً فاضلاً يدعو إلى الفخر [٤] .

---

(١) انظر : (Essay on the present and the future Peace-William Pen) of Europe . ـ لندن سنة ١٦٩٣ .

(٢) انظر مقال : (Cardinal Alberonil's scheme for reducing the Turkish Empire to the obedience of Christian Princes . المجلة الأمريكية للقانون الدولى سنة ١٩١٣ ص ٨٣ - ١٠٧ .

(٣) راجع مقال : Majid Khadury - المرجع السابق ص ٣٦٥ .

(٤) انظر مقال : Wright (The bombardment of Damascus) المجلة الأمريكية للقانون الدولى سنة ١٩٢٦ ص ٢٢٦

وبعد انتهاء الحرب النابوليونية فكرت بعض الدول فى دعوة الدولة العثمانية إلى مؤتمر ڤيينا سنة ١٨١٥ حتى يمكن تخفيف المنافسة بين الدول الأوروبية على اقتسام أملاك هذه الدولة .

ولكن هذا الاتجاه لم يلق قبولاً لدى الجميع ، وبقيت الدولة العثمانية خارج الجماعة الدولية (١) .

ومع أنَّ الدولة العثمانية تبادلت التمثيل الديبلوماسى مع الدول الأوروبية .

ومع أنَّها عقدت معها معاهدات متعددة ، إلا أن فقهاء القانون الدولى ظلوا ينكرون خضوع الدول الإسلامية للقانون الدولى العام .

فقرر « سير وليام سكوت » أنَّ القانون الدولى لا يطبَّق على الشعوب التى توجد خارج أوروبا .

وذكر أنه من الصعب مثلاً مطالبة رعايا مراكش باحترام قواعد القانون الدولى كما تسرى بين الدول الأوروبية (٢) .

وقرر « هولاند » أنَّ اختلاف مستوى الحضارة بين الدول الأوروبية وبين الشعوب غير الأوروبية يمنع المساواة بينها (٣) .

ومع ذلك وُجِدَ من الفقهاء مَن قرر أنه نظراً لأن الدولة العثمانية عقدت المعاهدات وتبادلت التمثيل الديبلوماسى مع الدول الأوروبية ، فإن القواعد العامة للقانون الدولى تطبَّق عليها .

---

(١) عارض القيصر « الكسندر » فى قبول العثمانيين فى المؤتمر مقرراً أنهم يكونون فى أوروبا شراً ، وأنه يجب إبقاؤهم خارج الجماعة الأوروبية .

(٢) راجع : H . E . Jeager, I . B . Scott (Cases on International Law) سنة ١٩٣٧ ص ٦٢ - ٦٤

(٣) انظر : Holland (Lectures on International Law) طبعة (Wallser) سنة ١٩٣٣

ويخلص مما تقدّم أنه حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر لم تكن الدولة العثمانية أو أى دولة إسلامية أخرى تتمتع بحقوق القانون الدولى .

وقرر « ويتون » فى سنة ١٨٤٥ أنه : « فيما يتعلق بالعلاقات بين الدول المسيحية وبين الدول الإسلامية كانت المسيحية فى بعض الأحوال تقبل القانون الإسلامى أو تعدّل القانون الدولى للمسيحية فى علاقاتها مع المسلمين ، فكانت مثلاً تقبل فدية للأسرى » (١) .

وفى خلال حرب القرم (سنة ١٨٥٤ - ١٨٥٦) اتضح للدول الأوروبية أنّ استمرار استبعاد الدولة العثمانية من العائلة الدولية يزيد الصراع فيما بينها على الاستيلاء على أملاك الرجل المريض .

ولهذا دُعِىَ السلطان العثمانى باتفاق جميع الدول الموقعة على صلح باريس سنة ١٨٥٦ إلى الاشتراك فى القانون العام وفى الجماعة الأوروبية (٢) .

ولقد فسّر أغلب الفقهاء الأوربيين نص هذه الماده على اعتبار أنه يمنح « تركيا » كل مزايا القانون الدولى (٣) ، ويفيد دخولها فى العائلة الدولية ، وبذلك بدأ اشتراكها فى وضع قواعد القانون الدولى .

* * *

● الدول العربية لم تشترك فى وضع القانون الدولى :

من الجلى أنّ الدول العربية لم تساهم فى وضع القواعد التقليدية للقانون الدولى العام .

---

(١) انظر : Henry wheaton (History of the modern Law of Nations) سنة ١٨٤٥ ص ٥٥٥ .

(٢) المادة السابعة من صلح باريس ورد بها دعوة الدولة العثمانية إلى To participate in the public Law and concert of Europe .

(٣) كان من اللازم أن تخلص الدولة العثمانية من الامتيازات الأجنبية حتى يمكن القول بتمتعها بكافة مزايا القانون الدولى العام .

فمن ناحية .. ظلت هذه الدول مستبعدة عن العائلة الدولية فترة طويلة -كما قدمنا - على اعتبار أنها كانت جزءاً من دار الإسلام .

ومن ناحية أخرى .. حينما قُبِلت بعض الدول الإسلامية فى العائلة الدولية كانت أغلب الدول العربية غير مستقلة .

إذ أنها كانت تخضع للسيادة العثمانية أو للاستعمار الأوروبى .

وكان من اللازم أن تنتظر أكثر الدول العربية حربين عالميتين حتى تحصل على استقلالها [1] .

وعلى هذا النحو قبلت كل دولة عربية بمجرد تخلصها من الحكم الأجنبى والاعتراف بسيادتها كل قواعد القانون الدولى كشرط لدخولها فى العائلة الدولية ، علماً بأنَّ كثيراً من هذه القواعد لا يمكن تبريرها إلا على أساس كونها تلائم مصالح الدول الأوروبية .

فالقانون الدولى التقليدى يعترف بالاستعمار ، ولا يقر حق تقرير المصير .

ويعترف بشرعية المعاهدات التى تُفرض على الشعوب بغير رضاها .

ولا يضمن حقوق الإنسان ، ولا يكفل حماية تملك كل دولة لمواردها الاقتصادية .

ويضع أنظمة تُبيح تسلط الدول الكبرى على أنواع من مياه الدول الداخلية والإقليمية .

كل هذا يفسِّر عدم رضاء الشعوب العربية - وهي تتفق فى هذا مع كافة الشعوب الآسيوية والإفريقية - عن كثير من قواعد القانون الدولى العام [2] .

---

(١) انظر فيما يتعلق بتطور الدول العربية نحو الاستقلال : مؤلفنا « مبادئ القانون الدولى العام » سنة ١٩٥٦ ص ١٧٠ وما بعدها .

(٢) انظر فى عدم رضاء الشعوب التى استقلت حديثاً عن القواعد : « القانون الدولى العام » المرجع السابق - ص ٥١

ولا جدال فى أنَّ اشتراك الدول العربية فى المجتمع الدولى الحديث سوف يتيح لها مناقشة قواعد القانون الدولى ، والاشتراك فى تعديلها .

وهذا أمر اتضح بالفعل فى خلال اجتماع المؤتمرات الدولية كمؤتمر « سان فرانسسكو » سنة ١٩٤٥وفى مناقشات وقرارات المنظمات الدولية حيث كانت الدول العربية تحاول على الدوام أن تجعل قواعد القانون الدولى تتمشى مع مصالحها ومصالح الشعوب الآسيوية والإفريقية ، ومبادئ المساواة والعدالة واحترام حقوق الإنسان .

ونحن نعتقد أنه من اللازم أن تبذل الدول العربية قصارى جهدها فى هذه المرحلة الانتقالية للقانون الدولى العام لكى تراجع - بصفة عامة - كافة قواعد هذا القانون ، ولكى تساهم فى تطوير القانون الدولى بشكل يتفق مع احتياجاتها وظروفها ومع الصالح العام للمجتمع الدولى.

ولا ريب فى أنَّ قيام الفقهاء العرب بإظهار فقه عربى أصيل فى ميدان القانون الدولى سوف يُسَهِّل هذه المهمة .

ومن الواضح أنَّ الأزمة الطاحنة التى يمر بها القانون الدولى العربى الآن ما هى إلا مظهر من مظاهر تدهور الثقافة الغربية وزوال سيطرتها على العالم [١] .

ونحن نأمل أن تساهم الثقافة الإسلامية والثقافات غير الأوروبية بصفة عامة فى وضع نظام جديد لحكم العلاقات الدولية ، لا يستمد مصدره من حضارة قارة بعينها أو جنس بمفرده .

* * *

---

(١) راجع مقال : Josef Kunz : (La crise et lestrausformations du droit des gens) . مجموعة دروس لاهاى سنة ١٩٥٥ - ٢ ، ٢٣ .

أقول : وربما حسب القارئ أنَّ أوروبا تراجعت عن تعصبها وهذَّبت من سلوكها حين رضيت أن تكون الدول العربية والإسلامية معها جنباً إلى جنب ، أو أنَّ آلام حربين كبيرتين هى التى أثمرت هذا الاعتدال فى السياسة ، وأوحت إلى الأخلاف أن يتركوا سياسة الأسلاف .

الواقع ينطق بغير هذا .. إنَّ العرب انضموا إلى الحلفاء فى الحرب الأولى فجوزوا على صداقتهم بوعد « بلفور » .

وانضموا إليهم فى الحرب الثانية فجوزوا بتنفيذه ، وخلق « إسرائيل » .

وقيل بعد ما أُنشئت : إنها خُلِقت لتبقى .

إذن ما سر هذا التحول الظاهرى ؟

والجواب : أنَّ حقد « أوروبا » على الإسلام وأتباعه لم ينقص إن لم يكن زاد بقدر ما يلقى الاستعمار فى الدنيا من كفاح ومقاومة .

وكل ما حدث أنَّ أوروبا اصطنعت أساليب جديدة لمحو الإسلام من داره ، واستئصاله - كما تزعم - من جذوره .

وهى لم تفتح المجال الدولى أمام العرب وسائر المسلمين إلا بعدما اطمأنت أنَّ هؤلاء وأولئك قد استُدرجوا للانسلاخ عن دينهم والتخلى عن حضارتهم ، والبراءة من ماضيهم .

وأنها قد طبخت الأمور فى الداخل والخارج ، وهيأت من وسائل اللُّطف والعنف واللَّذة والألم ما يجعل المسلمين صائرين - حتماً - إلى ما رسمه الغرب لهم .

والواقع أنَّ النظرة السطحية كانت توحى بأنَّ الإسلام قد أدبرت دولته وسقطت رايته ، وأنَّ التعلق به - خصوصاً فى أوساط السادة والقادة - أمسى شيئاً غير مستساغ .

وما زلتُ أذكر أنَّ « مصر » لما سارعت إلى الاعتراف بأندونيسيا عقب تحررها من الاحتلال الهولندى قالت إحدى الصحف الغربية : إنَّ ذلك لوحدة الدين .

فانبرى رجال خارجيتنا يردون - بحماس وغضب - قائلين : إنَّ عامل الدين لم يخطر لهم ببال فى هذا الاعتراف .

ياللسفالة !! وماذا يُنكر علينا إذا تمسكنا بهذا الدين ؟ واهتممنا أشد الاهتمام بأحوال إخواننا فيه ؟

لكنه الاستعمار الثقافى - بعد الاستعمار العسكرى - فعل فعله فى نفوس الكثيرين وجعل أوروبا تحسب أنها قد بذرت فى دار الإسلام فتناً لا تنتهى إلا بانتهاء هذا الإسلام المضطهَد .

بَيْدَ أنَّ الذخائر الروحية فى أمتنا لا تنفد .

وها هى ذى تقوم من سقطتها ، وتقاوم خصومها ، وتتشبث بالحياة العزيزة وتتهيأ لأداء رسالتها الكبرى مرة أخرى .

* * *

معنى انتشار الإسلام

الاسلام شهادة بأنَّ اللّه حق ، وشهود لآثار ألوهيته فى صحائف الكون ، وصوغ للحياة النفسية والاجتماعية وفوق ما أوحى اللّه لرسله .

وإعداد أجيال البشر الحاضرة والمستقبلة للسير على هذا الصراط ، ما نبض فى أبدانهم عِرق ، وخالج أفئدتهم شعور ..

والإسلام من قبل ذلك علاقة عامة بين الكائنات كلها وبين بارئها الأكبر جَلَّ جلاله ..

فالعالم أجمع - من عرشه إلى فرشه - فقير أبداً إلى ربه ، قائم به ، خاضع له ، عان لأمره .

وتلك حقيقة علمية لا يمارى فيها إلا أحمق .

ومن ثَمَّ فإن التمرد على اللّه شذوذ مستغرَب ، والازورار عن دينه خطأ مبين ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (١) .

إنَّ الإسلام للّه هو الصلة الطبيعية الفذَّة بين المخلوق والخالق .

وإذا كان البَشر فى هذا العصر يتواضعون على حقائق هندسية وكيماوية وفلكية مقرَّرة ففى صدر هذه الحقائق يجب أنَّ يعرف أن اللّه واحد ، وأنَّ السيرة التى يرتضيها من عباده دلالة على انقيادهم له ، وتحقيقاً لما يحبه لهم من خير .

هى سيرة محمد بن عبد اللّه ﷺ .

فهو الإنسان الكامل الذى التقت فى شخصه المُثل الرفيعة للإنسانية كلها .

إنَّ الشهادة بأنَّ اللّه واحد بيان لحق الخالق على المخلوق .

---

(١) آل عمران : ٨٣

والشهادة بأنَّ محمداً رسوله بيان للطريق التى يسير فيها المخلوق كى يرضى الخالق .

وهاتان الشهادتان هما الدعامه الأولى للإسلام .

* * *

وقد فهم المسلمون من نصوص دينهم ، أنَّ صاحب الرسالة الخاتمة جاء متمماً لما مهّد إخوانه الأنبياء السابقون .

وأنَّ هؤلاء الأنبياء كانوا دعاة للإسلام بمعناه الشامل العميق .

وأنَّ مر الزمان وتفريط الأتباع طمسا معالم الرسالات السابقة وأتاحا للغو والابتداع والتحريف أن تعدو على طبيعة الدين ووجهته .

فلم يكن بُدٌّ من رسالة عامة ثابتة تُعيد الحق إلى نصابه ، وترد الكلم إلى مواضعه ، وتجلو كل ما غشى وجه الفطرة من خرافة وهوى ، وتضمن ألا يتكرر فى المستقبل ما حدث فى الماضى من زيغ وشرود .

فكان هذا القرآن الذى غلب الزمن ، وبقى محفوظاً من كل ريبة .

وكان رسولة الذى نشر الحق إلى أبعد مدى يبلغه جهد بَشر ، والذى صدع أركان الباطل فماتت بعد لأى ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

* * *

وانطلق صحابة محمد ﷺ وأتباعه فى أقطار الأرض يحملون البلاغ السماوى الأخير .

انطلق الصُوّام القُوّام الخاشعون المخبتون إلى كل فج عميق يعرضون الإسلام على الناس . باللغة العالمية التى يفهمها أهل الأرض كلهم جميعاً ، لغة الخلق الزكى والسلوك العالى .

---

(١) النحل : ٦٣ - ٦٤

نعم إنَّ السَلَف الذى حمل الإسلام ، وعبر به الأبعاد الشاسعة ، أرى الناس من نفسه نماذج رائقة فدخل الناس فى دين الله عن إعجاب ورغبة .

وما كادوا يتعمقون هذا الدين ويتعرفون دخائله حتى صاروا حراصا على دعوته العامة مثل العرب الذين جاءوا به ، أو أشد ...

وقد وقع قتال فى أثناء سعى العرب لتحرير الشعوب السجينة ، وفك الأغلال عنها .

وهل كان يمكن قمع الاستعمار القديم أو الحديث إلا بالسلاح ؟

إنَّ أنبل قتال وقع على ظهر الأرض هو ما خاضه أتباع محمد ﷺ لرد « الرومان » إلى أوروبا من حيث جاءوا لكسر شوكة المجوسية فى فارس .

ولكن كيف يتصور امرؤ راشد أنَّ أربعة آلاف عربى مثلاً يصلحون قوة عادية لفتح مصر ، وتوطين الإسلام فيها جيلاً بعد جيل ؟؟

إنه لولا انبهار الأمم بالدين الجديد ، وتجاوبها معه ، وإحساسها بأنه هدية الأقدار إليها ، ما دانت لأهله ، ولا دخلت فيه ..

ماذا عسى يصنع أربعة آلاف رجل فى قُطر كمصر ، أمام عشرات الألوف من جند الرومان ، ومشايعيهم ؟

وهب أنهم جِنٌ فى الوغى ، وأنَّ خصومهم هباء ، ما الذى جعل جماهير الشعب تسالم الوافدين ، ثم تشرح صدراً بعقائدهم ، ثم تهب هي لنصرتها بعد ما اعتنقتها ؟

إنها طبيعة الحق عندما يُحَسن عرضه ، وتنزاح العواقب أمام الرغبة فيه .

وما مصر إلا مثلاً لشقيقاتها التى كانت عانية فى أسر الرومان ، ثم شامت أنوار الصدق فى هذا الدين فهوت إليه قلوبها ، ثم حملت لواءه إلى يوم الناس هذا عن اعتزاز وحب .

* * *

وعمر الباطل يطول بين الناس بمقدار ما تطول غيبة الحق عنهم ، ولعل لهم عذراً فى البقاء عليه ما داموا لا يعرفون غيره .

وقد كان الناس على نحلهم الأولى قبل الإسلام بين راض بها عن قصور ، أو راض بها عن اقتناع .

فلما ظهر الدين الجديد ، وتيسرت المقارنة ، والمقابلة ، بدأ التحول العظيم يشمل سواد الشعوب هنا وهناك ، فما مضى قرن على البعثة حتى كان الإسلام ملء السمع والبصر ، وكانت أجهزة الدولة الإسلامية ترقب هذا التحول من بعيد وهى دهشة ، بل إنَّ بعض الولاة استبقى ضريبة الجزية على مَن يدخل فى الإسلام ! كأنَّ وظيفة الحاكم تعويق الناس عن الإيمان لا إغراؤهم باعتناقه .

وما نذكر هذه القصة إلا لنشير إلى كذب مَن يزعمون أنَّ شائبة إكراه وقعت فى انتشار الإسلام .

إنَّ الدولة لم تستخدم فى الإسلام قَطْ أداة قسر على ترك دين واعتناق آخر ، كما وقع ويقع فى أقطار أخرى ، لخدمة أديان أخرى .

وما حاجة الإسلام إلى الإكراه ومبادئه تنساب إلى القلوب من تلقاء نفسها لأنها الفِطرة ، وتعاليمه تنساق إلى العقول كما تنساق البديهات التى يلقاها الفكر بالتسليم ولا يستطيع أمامها مراء .

إنَّ البيئة الحرة أخصب مكان لازدهار الإسلام ، ولولا شقوة الناس ما نصبوا العوائق أمام رسالته ، ولتركوها تبين عن طبيعتها فى هدوء ..

ومنذ أيام وقع فى يدى كتاب من هذه الكتب التي يؤلفها المبشرون والمستشرقون ، ويملؤنها بالطعون فى الإسلام والضغن على نبيه .

ولما كنت قد ألفت تهجم القوم فإننى لم أفزع لما ورد فى الكتاب من تهم ، أعرف ويعرف غيرى قيمتها .

لكن الكتاب الذي قرأته تضمن عبارات فى التعليق على انتشار الإسلام أرى من المصلحة إثباتها لأنها ترد نجاح الإسلام وارتفاع شأنه إلى خلل طارئ على القوى التي واجهها ، لا إلى صلاحيته الذاتية ، وأصوله النفسية والفكرية .

قال المؤلف المذكور : إذا أمعنا النظر فيما كتبه مؤرخو الكنيسة منذ القرن الثالث للميلاد ألفينا حال الأمة النصرانية لذلك العهد بعيدة جداً عما وصفها به بعض المصنفين من تقوى وصلاح .

وذلك أنها فضلاً عن كونها لم تكن مؤيدةً بالنعمة الفعّالة والغيرة والتقوى ، ولم تكن راسخة على أساس التعليم الصحيح وعلى الاتحاد وثبات الإيمان كما زعموا .

كان رعاتها مشتغلين بالمطامع الشخصية يتخذون العويص من مسائل الدين ذريعة للمشاجرات والمماحكات .

وقد انقسموا فيها إلى فِرق وبدع لا تُعَد . ونفوا من صدورهم ما ندب إليه الإنجيل من المودعة والمحبة والمؤاساة ، وعدلوا إلى المناوآت والضغائن وسائر المفاسد حتى إنهم بينما كانوا يتماحكون فى أوهامهم فى الدين أضاعوا جوهر الدين نفسه وكادت مشاجراتهم فيه تستأصله بتة .

ومعظم ما ننكره الآن على بعض فِرق النصرانية من باطل العقائد إنما نشأ وتأصل فى تلك الأعصر المظلمة فعاد بالنفع على الإسلام وأعان على انتشاره .

ونخص من تلك العقائد بالذكر عبادة القدّيسين والصور فإنها كانت قد بلغت وقتئذ مبلغاً يفوق كل ما نراه اليوم عند بعض فِرق النصارى [1] .

---

(١) لا تزال التماثيل تملأ الكنائس فى الشرق والغرب إلى يومنا هذا ، وهى تماثيل تُرمق برهبة وحب وتُقبّل أقدامها التماساً للبركة .

أما الكنيسة الشرقية فإنها أصبحت بعد انفضاض المجمع النيقاوى مرتبكة بمناقشات لا تكاد تنفضى ، وانتفض حبلها بمحاكمات الآريوسيين والنساطرة واليعقوبية وغيرهم من أهل البدع .

على أنَّ الذى ثبت بعد البحث أنَّ كُلاً من بدعتى النساطرة واليعاقبة كان بأن تدعى اختلافاً فى لفظ التعبير عن المعتقد أولى من أن تدعى اختلافاً فى المعتقد نفسه ، وبأن تدَّعى حجة يعنت بها كِلا المتناظرين على الآخر أولى من أن تدَّعى سبباً موجباً لالتئام مجامع عديدة يتردد إليها جماعة القسس والأساقفة ويتماحكون ليعلى كل واحد منهم كلمته ويحيل القضايا إلى هواه [1] .

ثم إنَّ نافذى الكلمة وأصحاب المكانة فى قصر الملك كان كل واحد منهم يختص نفراً من قوَّاد الجيش أو أصحاب الخطط يكون له عليهم الولاء ويتقوى بهم ، وبذلك صارت المناصب تُنال بالرشى ، وصارت النُصفة تُباع وتُشترَى جهاراً .

أما الكنيسة الغربية فقد كان فيها من تهالك « داماسوس » ، و«أورسكينوس» فى المشاحة على منصب الأسقفية - أى أسقفية روما - ما أفضى إلى احتدام نار الفتنة وسفك الدماء بين حزبيهما حتى إنَّ الوالى لما رأى أنه لا قِبَلَ له بقمع هذا الشر انصرف عن المدينة وترك المتنازعين وشأنهما . وكان الفوز بعد ذلك لـ « داماسوس » .

قيل إن القتل استحر فى الناس فى هذه النازلة حتى بلغ عدد القتلى فى كنيسة « سيكينيوس » مائة وسبعة وثلاثين فى يوم واحد .

ولم يكن من العجيب أن يشتد حرصهما على تبوء ذلك المنصب المهم لأنه كان مَن يتبوأه يصبح ذا دنيا عريضة وينال من صلات السيدات الرومانيات ثروة

---

(١) حاول الامبراطور « هرقل » الدخول فى النزاع بين المذهبين المتنافرين ، واقترح حلاً ثالثاً وسطا لجمع الكلمة ، ولكن الأمور زادت تعقيداً ورفض المصريون وغيرهم الانقياد له ، فحكَّم السيف لفض النزاع ، وظهر الإسلام والأمور بهذه المثابة ، فكيف يقال : إن الخلاف لفظى ؟ إنه حقيقى نابع من طبيعة العقيدة .

وافرة فيخرج فى الموكب والأبهة بالمركبات والمحفات مسرفاً فى ترف العيش أكثر من إسراف الملوك لما كان عليه أساقفة المدن الصغيرة من الاقتصاد والزهد ، ولو بعض الشيء [1] .

وكان أكثر ما تنشأ هذه المناقشات عن القياصرة أنفسهم ولا سيما القيصر « قسطنطيوس » فإنه إذا لم يقدر أن يميِّز بين صحيح الدين المسيحى وخرافات العجائز ربك الدين بكثير من المسائل الخلافية بدلاً من أن يلم شعث أهل الخلاف فيه فأسعر بذلك نارمشاحنات عديدة كلما خمدت أضرمها بغيرها مما لا نهاية له .

ثم ازدادت هذه الحال سوءاً على عهد « يوستنيانيوس » فإنه لم يؤثر أن يقصر فى الغيرة على الدين عن أساقفة القرن الخامس والسادس حتى كان إذا قضى بقتل مَن يخالفه من المذهب لا يرى أنه جاء شيئاً فرياً .

فلما فشا فى أولياء الأمور وأرباب الدين هذا الفساد فى العقائد والأخلاق السيرة ، نشأ عنه بالطبع فساد سيرة العامة من الناس فأصبحوا على اختلاف طبقاتهم ، وليس لأحدهم هَمٌ سوى جمع الأموال من الوجوه المحلَّلة أو المحرَّمة ، ثم إتلافها فى سرف العيش وانتهاك حرمات الله [2] .

هذا ما كان عليه حال النصرانية فى غير بلاد العرب .

---

(١) تدبر قول الله تعالى فى استنكار مسالك هذا النفر من رجال الدين : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. ﴾ (التوبة : ٣٤) ، وقد رفض الإسلام أن يكون هناك رجال دين يشتغلون وسطاء بين الله وخلقه ، وبذلك حسم الداء من أساسه فما بقى رجال الكهنوت بسلطاتهم الروحية والرسمية ، فأمر الأمم إلى بوار .

(٢) هذه حال جماهير الناس فى أوروبا اليوم ، إنَّ المذاهب المادية تسيطر على أخلاقهم وأحوالهم ، وفنون الاباحة تجعلهم عبيد شهوات ، والسر عدم وجود « الإيمان الصحيح » الذى يملأ فراغهم النفسى والفكرى ، وهذا المؤلف وأمثاله يطعنون فى الإسلام بدل أن يخلوا له الطريق ليحل المشكلة .

يا بارى القوس برياً ليس يُحسنه لا تظلم القوس أعط القوس باريها

أما حالها فى بلاد هذه الأمة التى هى وموضوع بحثنا - يقصد بلاد العرب - فلم يكن خيراً من ذلك . فقد اشتهرت هذه البلاد منذ القديم بكثرة البِدع ، ولعل ذلك ناشئاً عن حرية القبائل واستقلالها .

فكان فى نصارى العرب قوم يعتقدون أنَّ النفس تموت مع الجسد ثم تُنشر معه فى اليوم الآخر . وقيل إن « اريجانوس » هو الذى دَسَّ فيهم هذا المذهب .

وكم وكم من بدعة انتشرت فى جزيرة العرب لا نقول نشأت فيها .

فمن ذلك بدعة كان أصحابها يقولون : بألُوهية العذراء مريم ويعبدونها كأنها هى اللّه ، ويقرِّبون لها أقراصاً مضفورة من الرقاق يقال لها « كليرس » ، وبها سمى أصحاب هذه البدعة « كليريين » . وهذه المقالة بألُوهية مريم كان بعض أساقفة المجمع النيقاوى يقولون بها أيضاً . فإنهم كانوا يزعمون أنَّ مع اللّه الآب إلهين هما عيسى ومريم . ومن هذا كانوا يُدعون بـــ « المريمين » .

وكان بعضهم يذهب إلى أنها تجردت عن الطبيعة البَشرية وتألّهت . وليس هذا ببعيد عن مذهب قوم من نصارى عصرنا قد فسدت عقيدتهم حتى صاروا يدَّعونها تكملة الثالوث . كأنما الثالوث ناقص لولاها . وقد أنكر القرآن هذا الشطط لما فيه من الشرك (سورة المائدة : ١١٦) ولا جَرَم . ثم اتخذه محمد ذريعة للطعن فىَ عقيدة التثليث [١] .

وفضلاً عن ذلك ، فقد اجتمع أيضاً فى جزيرة العرب عدد وافر من الفِرق المختلفة لجأوا إليها هرباً من اضطهاد القياصرة . فأدخل محمد كثيراً من عقائدهم فى دينه كما سترى [٢] .

---

(١) هذه البدعة التى يرى المؤلف أنها انتشرت بين العرب قديماً ، ليست - فى الحق من مخترعات القدماء وحدهم - بل إنَّ العصر الحاضر شهد مجمعاً مسكونياً فى روما جعل مريم فوق البَشر !!

(٢) هذا هراء يشيع بين جمهرة المبشرين والمستشرقين ، والبراهين متكاثرة متضافرة على تفاهته .

أما اليهود الذين كانوا فى سائر البلاد أذلاء لا يُعتد بهم فقد قويت شوكهم فى بلاد العرب حيث لجأ كثير منهم على إثر خراب بيت المقدس وهوَّدوا كثيراً من ملوك العرب وقبائلهم .

ولذا كان محمد فى بادئ أمره يداريهم حتى إنه أخذ عنهم كثيراً من مقالاتهم ورسومهم وعاداتهم تألفاً لهم لعلهم يشايعونه ، لكنهم جرياً على سننهم المألوفة فى العناد لم ينقادوا له . بل ناصبوه العداوة ، وكانوا من أشد خصمائه يحاربونه ويكايدونه دائماً ، ولم يتأت له قهرهم إلا بعد المشقة والعناء وتعريض نفسه لمهالك أودت بهم آخر الأمر [1] .

وما ذكرناه من شدة بغضهم له وَلَّدَ فى قلبهم آخر الأمر بغضة لهم تضاهيها ، فصار يعاملهم فى باقى عمره بأقبح مما كان يعامل به النصارى ويُكثر الطعن فيهم فى قرآنه .

وقد تابعه المسلمون على ذلك إلى يومنا هذا ، فهم يفرِّقون بين اليهود والنصارى ويعدُّون اليهود أحقر أمة على وجة الأرض وأذلها .

وقد قال بعض مَن اشتهر بسداد الرأى فى السياسة : إنه لا يتسنى لأحد أن يسود قوماً وينشئ دولة ما لم تساعده الفرص . فإذا علمت هذا جزمت بأنَّ اختلال أحوال النصرانية كان من الفرص التى أعانت محمداً من الجهة الواحدة على نيل مأربه ، كما أنَّ وهن قوى الروم والفُرس أطمعه من الجهة الأخرى فى الظفر بمراده فيما يقدم عليه من هاتين المملكتين اللتين كانتا قبل ذلك من القوة على ما هو معلوم ، ولو كانتا باقيتين على بأسهما لكانتا ولا شك حطمتا الإسلام وهو فى مهده . لا جَرَم أنه لم يكن له أعوان على النشوء من النجاح

---

(١) الإسلام يحسن إلى أهل الكتاب جميعاً ما دامت مسالكهم معتدلة ، فإذا أبوا إلا إهانته وإساءته فما بد من أن يدفع عن نفسه ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ، وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت : ٤٦) .

الذى فازت به العرب حينما تصدوا لفتحهما وهم ينسبون فوزهم ذلك إلى دينهم الجديد والعون الإلهى الذى وصل إليهم بسببه [1] .

أما مملكة الروم فكانت قد أخذت فى الوهن والانحطاط من بعد « قسطنطين » حتى كان أكثر خلفائه لا يُعرفون إلا بذميم الخِلال ولا سيما الجُبن والفظاظة .

ولما ابتدأ أمر الإسلام كان برابرة القوط قد أغاروا على القسم الغربى من المملكة الهنكارية وتغلّبوا عليه .

وأما القسم الشرقى فكان برابرة التُرك يغزونه من الجهة الواحدة والفُرس من الأخرى ، حتى أصبح وليس للروم فيه طاقة على دفع عدو قوى يهاجمهم . فلذا اضطر القيصر « موريقس » أن يؤدى الجزية إلى خاقان التُرك .

ولما خرج الدمستق « فقاس » على هذا القيصر وقتله .أثار بعض الجند على بعض فتفانوا عن بكرة أبيهم .

حتى إنّ « هرقل » لما تبوأ منصب العاهلية بعد ذلك بسبع سنين لا غير ، ورام أن يجمع قلبهم لم يجد حياً سوى اثنين فقط من كل الجنود الذين كانوا تحت السلاح حينما اغتصب « فقاس » السلطان .

ومع أنّ « هرقل » هذا كان ولا شك رجلاً هُماماً ذا رأى وتدبير ، وقد أفرغ جهده فى لَم شعث الجيش ورده إلى الطاعة ، وظهر على الفُرس حتى أخرجهم

---

(١) مسكين هذا المؤلف !! إنه يحاول حجب الشمس بكفه ، كيف يتصور عاقل أن العرب من غير الإسلام كانوا يستطيعون هزم الروم والفُرس مهما ضربت الحرب بينهما واشتد الخلاف .

لنفرض أنّ بين الروس والأمريكان نزاعاً دامياً ، فهل معنى ذلك أن تستطيع تركيا أو ليبيا الاستيلاء على الدولتين الكبيرتين ؟ إن الإسلام خلق العرب خلقاً جديداً ، وبه - وحده - وقعت معجزة الفتح .

عما كانوا قد استولوا عليه من بلاد الروم وتغلّب أيضاً على قسم من بلادهم ، إلا أن مقاتل المملكة قد أُصيبت [1] .

حتى لم يكن قَطْ وقت أشأم عليها من هذا ولا أيمن منه لِمَا كانت العرب تنويه بها .

فكأن اللّه جَلّت حكمته رام أن ينتقم من نصارى المشرق لتنكبهم على نهج الدين الأقدس الذى وضعه لهم فأرسل عليهم هؤلاء العرب يضربهم بهم .

* * *

ونحن نُثبت هذه العبارات على طولها ، لأنها تتضمن دفاعاً حاراً ضد الإسلام ، دفاعاً لا ينقصه الذكاء ولا الجهد .

إنّ الرجل ينسب انتشار الإسلام على حساب الرومان - خاصة - إلى ما ساد بينهم من اختلاف مذهبى ، وشهوات بدنية ونفسية .

ويرى أنّ هذا الاختلاف لفظى لا حقيقى ، وأنّ تلك الشهوات موقوتة لا دائمة .

ونحن نُصدِّقه فى نصف ما قال ونخالفه فى النصف الآخر . أو نُصدِّقه فيما قاله ، ونخالفه فى العلل التى ذكرها .

إنّ التثليث مولد ذاتى للخلاف والغموض على تراخى العصور .

ومشكلاته حقيقية لا شكلية ... وذلك بخلاف التوحيد المطلق الذى قرره الإسلام .

ثم إنّ الإنسانية بعد نموها الفكرى الظاهر ، الذى لم يُعهد مثله فى تاريخها الأول تحتاج فى إقناعها العقلى ، وتربيتها النفسية ، وتنظيمها الاجتماعى والسياسى ، إلى دين يكافئ هذا الامتداد فى مواهبها وخصائصها .

---

(١) إن معارك الفتح كما يحكى جمهور المؤرخين لم تكن نزهة للعرب كما يقع فى وهم مَن يقرأ هذا الكلام . لقد خاض المسلمون قتالاً مريراً ، وقدّموا للّه ألوف الشهداء وسفكوا فى سبيل كسر الروم والفُرس دماء غزيرة ، وما تركت كلتا الدولتين قوة تستطيع بها استبقاء سلطانهما إلا حشدتها .

ولكن اللّه أراد الخير للإنسانية ، فانكسرت صفوف الاستبداد الأعمى وانفتح المستقبل للدين القيم ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾ (الرعد : ١٧) .

دين يُشبع جوعها الروحى ، وتألقها الذهنى .

إنها بحاجة إلى الدين الذى تعاون النبيون جميعاً على إبلاغ أصوله وتوطيد أركانه ، ثم جاء صاحب الرسالة الخاتمة فأعطاه صورته النهائية المقنعة المشبعة .

وإذا لم تعترف أوروبا بهذا الدين ، فستبقى آخر الدهر فريسة المذاهب المادية شرقية كانت أو غربية

وستبقى صريعة الشهوات الى تغتال الطُهر فى الأنفس والعدل بين الأمم ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

* * *

حول الخلافة الغارية

كنتُ طفلاً فى السابعة من عمرى عندما طُرِد « السلطان عبد المجيد » آخر الرجال الذى حملوا لقب خليفة فى الآستانة .

وسقوط الخلافة الإسلامية (الإسمية) فى العصر الحديث يشبه سقوط « روما » قديماً فى البرابرة .

كان له دوى بعيد المدى وإن لم نحس نحن به فى طفولتنا ، ولا شعرنا - بعد - بآلام ذلك الحدث الخطير .

فقد تعلّمنا فى ظل الاحتلال أنه ليس من الضرورى أن تكون للأُمة الإسلامية جامعة عامة ولا خلافة قائمة ... !!!

ثم إنَّ المآسى التى اقترفها الأتراك ، والمهازل التى صنعها السلاطين المدعون للخلافة أعانت على تقبل الأمة لما وقع ، وتخاذل الجهود لمداواة آثاره السيئة ..

وأرى لزاماً على الكاتب المسلم أن يشرح لأُمته ملابسات ذلك السقوط الشنيع والنتائج التى تمخَّض عنها .

(أ) إن منصب الخلافة - على جلالته - استمكن منه - فى عصور طويلة - أُناس لا ترشحهم خلالهم أبداً له .

والوظيفة تُظلم إذا وليها مَن يعجز عن أمانتها ، ومَن ينزل بخلائقه عن مكانتها .

وعلاج هذا الاضطراب لا يكون بإلغاء المنصب ، وإنما بمضاعفة الضوابط التى تحول دون وصول المغموصين إليه .

وتاريخ العالَم السياسى حافل بسير الملوك والوزراء الذين نالوا مناصبهم الكبيرة بطرق صغيرة .

وعندما تيقظت الشعوب لمنع هذا الخلل شرعت الدساتير التى تكفل اختيار رؤساء صالحين ، ولم تصدر أحكاماً قاضية بإلغاء الرياسات كلها ...

وقد كان سلاطين « آل عثمان » ملوكاً على حظ كبير من الغشم .

ولا يصلحون - بداهة - للنيابة عن رسول الله فى إقامة شؤن الدين والدنيا .

إلا أنَّ ادعاءهم للخلافة فيه اعتراف بأن المنصب المرموق باق يحمل المعانى المنوطة به .

وعلى الذين يبتغون الإصلاح أن يزيلوهم عنه ليجيئوا بأفضل منهم .

أما الحكم عليه وعليهم بالإعدام فذلك ما لا مساغ له ..

لكن القائد التركى « مصطفى كمال » قرر طرد الخليفة « السلطان عبد المجيد » لا لأنه حَطَّ من قَدْر منصبه ، بل لأنَّ السيد « مصطفى » كان متفقاً مع دول أوروبا على إزالة الخلافة نفسها من تركيا .

والقائد التركى عندما ألغى الخلافة لم يقصد فقط إلى فصم الروابط التى تصل تركيا بالعالم الإسلامى ، بل كان - إلى جانب ذلك - يريد فصل الإسلام نفسه عن جهاز الدولة كلها ، وإقامة حكومة لا دين لها .

أى أنه - بضربة واحدة - حقق أمانى « أوروبا » التى تسعى لها من بضعة قرون .

لقد قال لانجلترا وفرنسا وسائر الحلفاء : دعونى أصنع بيدى ما تصبو إليه أنفسكم .. فتركوه ...

وانطلقت الدعايات بعد ذلك تردد أنَّ تركيا انتصرت ، وأنَّ الحلفاء الصليبيين انهزموا ... !!!

(ب) وإزالة الخلافة وإقصاء الإسلام عن الدولة لم يتما بجرة قلم .

فإن جمهور الأتراك يحترم دينه ويخضع لسلطته عن طواعية .

وقد ضحى هذا الشعب المؤمن كثيراً طوال خمسة قرون فى سبيل العقيدة التى ارتضاها .

غير أنَّ تضحياته الجمة ضيعها فساد الحُكَّام وسفه « آل عثمان » وعوج السياسة التى رسموها لأنفسهم وللأمة الإسلامية معهم ..

وقد ركب « مصطفى كمال » الصعب والذلول لتنفيذ مأربه ، واقترف صنوفاً من الغش والاحتيال والظلم والقتل لحمل الأمة على قبول فكرته ، وسخَّر جهازاً من الأجراء والمنتفعين لتلويث سمعة خصومه وتلفيق التهم ضدهم .

ولن يُعرف مقدار ما صنع « الكماليون » لتثبيت نظامهم الجديد إلا إذا انقضى هذا الحكم ، وانكشفت الصحائف الذى يطويها الآن عامداً .

وحسبنا أن نُلقى نظرة عجلى على الطريقة التى وُلِدَت فيها جرثومة هذا النظام الخبيث لنتبين أسلوبه فى السير والإقناع .

* * *

عندما اقترح « مصطفى كمال » فصل الدين عن الدولة ، وتقدَّم بمقترحه هذا إلى مجلس النواب رأى أغلب الأعضاء أن يناقشوا الفكرة ، وأن يتعرفوا حقيقتها ، وأن يزنوا نتائجها بضمائرهم وأفكارهم ...

خاف صاحب الاقتراح عقبى البحث والدرس ! وطلب أخذ الرأى دون نقاش ووافقه على ذلك أصدقاؤه من النواب .

إلا أن المجلس قرر إحالة الاقتراح على لجنة الشئون القانونية لتبدى أولاً وجهة نظرها فيه ، ثم تعرضه بعد ذلك على المجلس ، وهذا إجراء دستورى سليم .

وذهب الاقتراح إلى اللجنة التى عكفت على دراسته .

ولم تلبث طويلاً حتى رأت مخالفته الجلية لأصول الإسلام فرفضته .

قال الشيخ « تقى الدين النبهانى » : لكن « مصطفى كمال » يريد فصل الدين عن الدولة استجابة لطلب الحلفاء الذين يبغون القضاء على آخر معالم الدولة الإسلامية ...

لهذا فإنه - ما إن رأى اتجاه اللجنة إلى الرفض حتى فقد سيطرته على أعصابه وقفز فجأة ثم اعتلى مقعداً وهو يتميز من الغيظ وصاح :

« أيها السادة .. لقد اغتصب السلطان العثمانى السيادة من الشعب بالقوة ، وبالقوة اعتزم الشعب أن يستردها منه .

إنَّ السلطنة يجب أن تُفصل عن الخلافة وتُلغى ، وسواء وافقتم أم لم توافقوا فسوف يحدث هذا . !

كل ما هنالك أنَّ بعض رؤوسكم سوف يسقط فى غضون ذلك .. » !!

وكان يتكلم بلهجة الديكتاتور فانفض اجتماع اللجنة .

ثم دُعيت الجمعية الوطنية من فورها لتناقش الاقتراح وتُبدى رأيها فيه ..

وأحس « مصطفى كمال » أنَّ الاتجاه السائد يميل إلى رفض هذا الاقراح فجمع أنصاره من حوله وطلب أخذ الرأى عليه برفع الأيدى مرة واحدة !!

فاعترض النواب على هذه الخطة وقالوا : إن كان لا بد من أخذ الرأى فليكن مناداة بالاسم ..

فرفض « مصطفى كمال » وصاح - وفى صوته رنة التهديد - قائلاً : « أنا واثق من أنَّ المجلس سيقبل الاقتراح بإجماع الآراء ، ويكفى أخذ الأصوات برفع الأيدى » .

ثم طرح الاقتراح على الأعضاء فلم ترتفع غير أيدى قليلة لتأييده .

لكن النتيجة أُعلنت أنَّ المجلس أقر الاقتراح بالإجماع !!

فدهش النواب لذلك وقفز بعضهم فوق مقاعدهم محتجين صارخين : هذا غير صحيح ، ونحن لم نوافق .. فصاح بهم أنصار الغازى يسكتونهم ويتبادلون معهم الشتائم ... !!

* * *

ونحن لا ينقضى لنا عجب من شئ واحد ، جُرأة هؤلاء المستبدين على الكلام باسم الشعب .

وهم يعرفون معرفة اليقين أنَّ الشعب ينبض بكرههم ويمسى ويصبح فى لعنهم .

إنَّ هذا « المصطفى كمال » يزعم أنَّ الخليفة اغتصب وجوده الأدبى من الشعب التركى .. وأنَّ هذا الشعب وكَّل إليه استرداد حقه المغتصب .

مع أنَّ الشعب - ممثلا فى نوابه - أعلن كراهيته واشمئزازه من سياسة « مصطفى كمال » وأفكاره وأساليبه .

فباسم أى شعب يتكلم هذا الرجل ؟

إنه يدرى أنَّ الأتراك يمقتون شخصه وحكمه ويودون الخلاص منه فى لمح البصر .

ومع ذلك يقف هذا القائد الفاجر ليقول : باسم الشعب التركى آمر بكذا ، وأنهى عن كذا .

قال الشيخ تقى الدين : تيقن الناس أنَّ حكَّام أنقرة الجدد كفرة ملعونون ، صاروا يلتفون حول الخليفة « عبد المجيد » يحاولون رجع السُلطة إليه ليكون الحاكم الحقيقى فى البلاد فيقضى على هؤلاء المرتدين .

وأدرك « مصطفى كمال » الخطر مجسماً ، وعرف أنَّ كثرة الشعب تكرهه ، وتصمه بالزندقة والإلحاد ، فنشط فى الدعاية ضد الخليفة والخلافة ، وأثار حماسة الجمعية الوطنية حتى سنَّت قانوناً يقضى باعتبار كل معارضة للجمهورية وكل ميل إلى السلطان خيانة عقابها الموت .

وشرع « الغازى » يهيئ الأجواء لإلغاء الخلافة .

فقام بعض النواب يتحدثون عن فائدة الخلافة لتركيا من الوجهة السياسية العامة .

فقاومهم « مصطفى كمال » وقال : « أليس من أجل الخلافة والإسلام ورجال الدين قاتل القرويون الأتراك وماتوا طيلة خمسة قرون ؟

لقد آن أن تنظر تركيا إلى مصالحها وحدها ، وتتجاهل الهنود والعرب ، وتنقذ نفسها من زعامة المسلمين » .

كذلك سار « مصطفى كمال » فى دعايته ضد الخلافة .

ثم تابع حملاته على الخليفة فأبرزه هو وأنصاره فى صورة الخونة الذين يشتغلون لحساب الإنجليز .

ولم يكتف بذلك ، بل خلق موجة إرهاب ضد النواب الذين يريدون استبقاء الخلافة فى تركيا ، فإن أحدهم صرّح بضرورة الخلافة ووجوب المحافظة على الدين .

فما كان من « مصطفى كمال » إلا أن كلّف شخصاً باغتياله فى الليلة التى تحدّث فيها . فاغتيل هذا النائب المسلم وهو راجع إلى بيته من الجمعية الوطنية .

وألقى نائب آخر خطبة إسلامية فأحضره « مصطفى كمال » وهدده بالشنق إذا فتح فمه بمثلها مرة أخرى .

وبذلك نشر الرعب فى طول البلاد وعرضها ، وضمن ألا يشغب عليه معارض .

ثم أرسل إلى حاكم إستانبول يأمره بالتشديد على الخليفة وإنذار أتباعه كى يتخلوا عنه .

وتحركت الغيرة الإسلامية فى قلوب بعض الكماليين الذين توجسوا الشر من إلغاء الخلافة ، فعرضوا على زعيمهم أن ينصّب نفسه خليفة للمسلمين فأبى .

ثم جاء وفدان أحدهما من « مصر » والآخر من « الهند » وطلبا إليه أن ينصّب نفسه خليفة للمسلمين فكرر إباءه ، ثم استعد للضربة القاصمة وأعلن للعالم إلغاء الخلافة فى أيار (مايو) سنة ١٩٢٤

وقد يتساءل البعض : لماذا رفض هذا القائد أن يكون خليفة للمسلمين ؟

أليس ذلك أمارة على كرهه الخالص لذلك النظام ، وشعوره بلزوم التخلى عنه ؟

ورأينا أنّ الرجل كان منطقياً مع رغبته فى الحكم وفى مستقبله السياسى عندما أصر على إبعاد الخلافة عن تركيا وعن شخصه أيضاً .

ولو أنه رضى أن يكون خليفة لعاودت قوات الحلفاء هجومها ، وثابرت على القتال حتى تسقط بقية الحياة الإسلامية فى الميدان الدولى .

إنّ أوروبا المتعصبة تحارب بالسيف وبالمال وبالعلم والقلم كل زعيم شرقى تشم فى قيادته رائحة يقظة إسلامية .

والغازى « مصطفى كمال » لم تكن لديه الطاقة النفسية ولا العقلية لتحمل هذا العداء .

ولذلك آثر الجبان أن يحارب أمته بدلاً من أن يحارب دول أوروبا ، وأن يقضى على دينها ليظفر هو بالبقاء .

* * *

قال المرحوم أحمد شوقى يرثى الخلافة ، ويبكى فقدها ، ويندد بسياسة مصطفى كمال نحوها :

ضجت عليك مآذن ومنابر ... وبكت عليك ممالك ونواح

الهند والهة ومصر حزينة ... تبكى عليك بمدمع سحاح

والشام تسأل والعراق وفارس ... أمحا من الأرض الخلافة ماح ؟

وأتت لك الجمع الجلائل مأتماً ... فقعدن فيه مقاعد الأنواح

يا للرجال لحُرّة موءودة ... قُتِلت بغير جريرة وجناح

إنّ الذين آست جراحك حربهم ... قتلتك سلمهم بغير جراح

هتكوا بأيديهم ملاءة فخرهم ... موشية بمواهب الفتاح

نزعوا عن الأعناق خير قلادة ... ونضوا عن الأعطاف خير وشاح
حسب أتى طول الليالى دونه ... قد طاح بين عشية وصباح
وعلاقة فُصِمت عرى أسبابها ... كانت أبر علائق الأرواح
جمعت على البر الحضور وربما ... جمعت عليه سائر النزاح
نظمت صفوف المسلمين وخطوهم ... فى كل غدوة جمعة ورواح
بكت الصلاة ، وتلك فتنة عابث ... بالشرع عربيد القضاء وقاح
أفتى خزعبلة وقال ضلالة ... وأتى بكفر فى البلاد براح

ثم قال يصف مصطفى كمال :

أدوا إلى الغازى النصيحة ينتصح ... إنَّ الجواد يثوب بعد جماح
إنَّ الغرور سقى الرئيس براحه ... كيف احتيالك فى صريع الراح ؟
نقل الشرائع والعقائد والقرى ... والناس نقل كتائب فى الساح
تركته كالشبح المؤله أمة ... لم تسل بعد عبادة الأشباح
هم أطلقوا يده كقيصر فيهمو ... حتى تناول كل غير مباح
غرَّته طاعات الجموع ودولة ... وجد السواد لها هوى المرتاح
وإذا أخذت المجد من أمية ... لم تعط غير سرابه اللماح

ثم قال :

لا تبذلوا بُرْدَ النبى لعاجز ... غزل يدافع دونه بالراح
بالأمس أوهى المسلمين جراحة ... واليوم مَدَّ لهم يد الجراح
فلتسمعن بكل أرض داعيا ... يدعو إلى « الكذاب » أو لسجاح
ولتشهدن بكل أرض فتنة ... فيها يُباع الدين بيع سماح
يفتى على ذهب المعز وسيفه ... وهوى النفوس وحقدها الملحاح

* * *

(جـ) إنَّ قصة إلغاء الخلافة تفتح لنا باب الكلام عن صلة المسلمين بدول أوروبا وأمريكا تلك التى تسمى دون حياء - دول العالم الحر .

هذه الدول تؤمن بالحرية لنفسها كى تصنع ما تشاء بخصومها وهى تمقت الحرية أشد المقت للآخرين ، خصوصاً المسلمين .

ومن ثَمَّ فهى إن لم تباشر إذلالهم بحكَّام من دمها وجلدتها بحثت عن الحكَّام الخونة الذين يتسلطون علي شعوبهم بالحديد والنار ، ثم تعاونت معهم سراً وعلناً.

إنَّ الحرية مرادفة للإسلام .

فإنَّ الإنسان فى نظر هذا الدين لا يعرف له إلا رباً واحداً يخضع له ويحتكم اليه ويناصى العباد طُراً أمامه .

وأزمات الحرية فى بلاد الإسلام نشأت قديماً وتنشأ أبداً من ضعف الإيمان ورقة العقيدة واضطراب معنى التوحيد .

ولذلك استمات المصلحون فى محاربة الاستبداد ومظاهره وتوفير الحريات كلها للأُمة الإسلامية .

إذ أنهم بذلك لا يضمنون الخير للناس فحسب ، بل يضمنون بقاء الدين فيهم وبقاءهم على الدين .

إنَّ تقلص الحرية معناه سيادة الوثنية وذهاب الإسلام أو تزوير صور له بعيدة الصلة بجوهره .

وقد اجتهد المسلمون فى أواخر دولة الخلافة كى يرسوا القواعد لحياة دستورية سليمة ، وكادوا يفلحون .

حتى جاء ذلك الأفاك التركى « مصطفى كمال » فألغى الخلافة ، ومحا الشورى ، وأحال النظام الدستورى أنقاضاً ، وتحولت تركيا - للأسف - إلى دويلة تافهة لا وزن لها ولا خطر .

وتعلمت « دول العالَم الحر » أنَّ الاستبداد هو وسيلتها الفذَّة لتحويل الشعوب المسلمة عن دينها .

فقررت أن تعبث بالدساتير فى كل بلد إسلامى ، وأن تظاهر حكَّاماً بينهم وبين الجماهير فجوات بعيدة القرار .

ذلك أنه فى غيبة الحرية وسطوة القهر يمكن إلغاء مظاهر إسلامية كثيرة .

أما والشعوب تُحسن الأخذ لنفسها والعبير عن مشيئتها فهى لا تدع الإسلام أبداً ولا تقبل التفريط فيه .

إذا كان الإسلام قد تأذى فى الماضى من كبت الحريات فهو لم تنتقص أطرافه فى الحاضر القريب إلا تحت وطأة الاستبداد .

ودول العالَم الحر - كما تتسمى - تعرف أنَّ لها علاقات بحكَّام لو ملكت شعوبها شيئاً من الأمر لطوَّحت بهم تحت صفائح القبور .

ولكنها دول يشد بعضها إلى البعض الآخر حقد دفين على الإسلام ، وغش خبيث لأهله ، مَن كانوا وأين كانوا !

إنَّ الاستبداد غول الأفراد والجماعات ، غول الذمم والكرامات .

وهو - لا شك - سيبرز لك وحده ، وستبدو جرثومته الخبيثة عندما تبحث عن السر فى تأخر المسلمين ، وتخلف قافلتهم منذ عدة قرون .

أجل .. فإن العلم لا يزدهر ، والأدب لا ينهض ، والقوى البَشرية لا تنشط ، والمواهب العليا لا تزكو ، وسوق المناقشة لا تقوم .. إلا فى سعة الحرية .

إنَّ الحكم الفردى المطلق قد يظهر لماماً فى بعض البلاد .

وقد يكون علاجاً موقوتاً لبعض الحالات .

وقد يكون بعض الرؤساء عباقرة على حظ كبير من الذكاء الخارق والقُدرة الرائعة ..

ومع التسليم بصلاحية هذا النوع من الحكم فى ظل الضرورات التى تدعو إليه كما يقولون . فنحن نجزم بأنَّ المسلمين على مر العصور لم يستفيدوا منه يوماً ، وأنَّ المستبدين الذين تداولوا حكمهم كانوا نفراً من الفراعنة دمروا على الناس معاشهم ومعادهم ..

ونحن نعرف أنَّ الحكم فى روسيا فردى .

ومع ذلك فإنَّ صاحب هذا الشأن يُعلن نفوره من نزعات الأثرة التى تقارن سيطرة القادة .

ويقول : إنه لا يملك - من نفسه - حق الحكم وإنما يملك باسم الحزب !!

نشرت الصحف تحت عنوان « أسباب إقصاء الماريشال زوكوف عن منصبه » :

أعلن « خروشيشيف » لأول مرة أسباب إقصاء الماريشال « زوكوف » وزير الدفاع السابق عن منصبه وذلك فى حديثه الخاص لمدير « يونايتد برس » ، فى موسكو فقال :

« إنَّ « زوكوف » كان فظاً تتجه أساليبه إلى الديكتاتورية .

لقد كان ينفرد بالرأى غالباً دون التشاور مع زملائه .

لقد كان هذا مغتفَراً فى وقت الحرب ولكن ذلك لا يُغتفر فى وقت السلم .

وعلى الرغم من ذلك فالماريشال « زوكوف » جندى ممتاز ، ولكن إذا كان « زوكوف » عظيماً ، فإن الحزب الشيوعى أعظم منه وأكثر أهمية » .

ومضى « خروشيشيف » فقال : « إنَّ ظهور شخصية أخرى كشخصية ستالين أو إحياء مبدأ « تقديس الشخصية » أصبح أمراً مستحيلاً فى روسيا .

وقد أُبعد « زوكوف » عن منصبه بواسطة الهيئة الرياسية . واللجنة المركزية للحزب الشيوعى ، وليس بواسطة قواد الجيش .

وأردف يقول : لقد كانت أساليب « زوكوف » ديكتاتورية ، ولكنه لم يصل إلى مرتبة « ستالين » أو إلى نصف ما وصل إليه ستالين » .

والغريب أنَّ خرافة تقديس الشخصية التى يتمرد الروس عليها أو يتبرأون من وصمتها - هذه الخرافة يُراد أن تعيش فى الشرق الإسلامى ، وأن تمتد جذورها فى تربته .

مع أنَّ الإسلام أبعد شئ فى العالمين عن هذه السخافة ، ويستحيل أن تعيش فى كنفه أو تحيا ويحيا هو معها حياة صحيحة .

* * *

تحقير الإسلام فى بلادنا

استغل الغرب تفوقه السياسى والعسكرى وسقوط أغلب الأقطار الإسلامية فى قبضته ليمحو من النفوس والأذهان كل إعزاز لهذا الدين أو إحياء لتعاليمه .

ورسم خطة شاملة واعية للقضاء عليه نظرياً وعملياً ، واجتثاث جذوره عنواناً وموضوعاً ، وتوهين روابطه فى الأفراد والجماعات ، وإثارة فوضى عامة فى كيانه المادى والأدبى تنتهى - حتماً - بزواله وإن استغرق زمناً طويلاً أو قصيراً .

واختلفت دول الغرب فى طرائق إجهازها على الإسلام .

فمنها المتعجل الذى يريد ذبحه بالسكين ، والقضاء على أهله بالسرعة التى تُقرِّب الغاية المنشودة .

ومنها المتأنى الذى يذبح بغير سكين ، ويقتل من غير أن يسفك الدماء ، ويلجأ إلى العنف فى الفترات التى تستعصى فيها الضحية ، ولا يبقى من التكشير عن الناب بد .

وكانت سياسة « إنجلترا » فى مصر من الطراز الأخير .

استطاعت هذه الدولة الماكرة أن تطع الإسلام فى صميمه دون أن تفتعل ضجة.

وما عَزَّ عليها بلوغه بنفسها وكَّلت إلى صنائعها تنفيذه وهى مختفية !

وفى نصف المدة التى احتلت فيها مصر تمكنت من طى رقعة الإسلام عن آفاق واسعة ، وخلقت طوائف شتَّى : بعضها غريب على الإسلام وبعضها عدو له ، وبعضها يؤمن بجزء من تعاليمه ويكفر بجزء آخر .

واستشرت الجراءة على هذا الدين جملة وتفصيلاً .

فهذا ينكر أصل الإيمان .

وهذا يمارى في حقيقة النبوّات وإمكان الوحى .

وهذا يتساءل : لِمَ تُحرَّم الخمر مع فائدتها للصحة ؟

ثم يقول : إنَّ تحريمها خطل !..

وهذا يرى الوقاع الجنسى ما دام بتراضى الطرفين لا شئ فيه ، ويستغرب تسميته زنا .

وهذا يُمضى فوائد الربا ويسخر من حظرها .

وهذا يصف الصلوات الخمس بأنها مضيعة للأوقات ومشغلة عن الواجبات .

وهذا يستنكف من التذكير باليوم الآخر ويظن الحديث عنه رجعية .

واطرد نشاط الإنجليز فى هذا المجال ! وشدَّدوا النكير على بقايا الإسلام المهزوم فى القلوب الخاوية والصفوف المتراخية .

وكان تخلف المسلمين الحضارى ثغرة ينفذ منها أُولئك المتربصون حين يتساءلون فى خبث : كيف تُبقون على الإسلام وقد اكتشف الغرب الكهرباء ؟!

لماذا لا تتخلعون عن تاريخكم وتقاليدكم وأنتم تستوردون حاجاتكم كلها من بلادنا ؟ ...

وقد ينضم إلى هذا التساؤل السمج وسواس آخر يدلف إلى نفس الشباب فى مكر ودهاء يقول له : افتح ذراعيك لهذا الجديد الغالب ، ودع عنك ربك ونبيك وقومك .

إنَّ المستقبل الدافئ السخى المأمون لا تكفله إلا هذه الحياة الوافدة ولا ينمو إلا فى ظل أصحابها المنتصرين .

سبعون سنة والإنجليز الخُمر ، والإنجليز السُمر - أعنى صنائعهم من أبناء جلدتنا - يتابعون حملاتهم على الإسلام ويلحون فى تقصير خطوطه حتى وصلوا

آخر الأمر إلى نتائج مروِّعة ، نثبتها هنا ليعرف أولوا النُهى من أين أتينا ؟ وكيف النجاة ؟ ..

أفلح الاستعمار فى تكوين جيل يستحى من الانتساب للإسلام ويكره أن يُرى وهو يقوم بشئ من شعائره ، خصوصاً بين المثقفين الكبار ، والطبقات التى تُهيأ للحكم والنفوذ .

الواحد من هؤلاء يحب أن يراه الناس خارجاً من حانة ، ولا يحب أن يروه خارجاً من مسجد .

ومن السهل عليه أن يُوصَف بأنه زنا بعشر نسوة .

لكن وجهه يسود لو قيل : متزوج من اثنتين .

أما أن يُفكِّر فى تلاوة آيات من القرآن أو يرجع إلى شئ من سُنَّة رسول الله فذلك ما لا يخطر له ببال ...

إنَّ الغزو الثقافى احتل أقطار نفسه جميعاً وزلزل ثقته بدينه أو هدمها عن آخرها فهو محسوب على الإسلام باسمه فحسب .

بل هو يجتهد أن يُبعد أولاده عن الإسلام بصلة الاسم التى لزقها القَدَر به .

ولذلك ما يسمى ابنه محمداً ولا عبد الله ولا حسناً ولا ما أشبه ذلك .

بل يختار أسماء تجعل صبغة الإسلام بعيدة عنهم ، بنات كانوا أم بنين !!

هذا الصنف من المتعلمين لا يكاد يخلو منهم ميدان .

وكنودهم للإسلام ونأيهم عنه ظاهران أتم الظهور فى حياتهم الخاصة والعامة ..

وهم يقرأون فى الصحف أنَّ واعظ « أيزنهاور » - مثلاً - حضر إلى القاهرة، وأنَّ رئيس الولايات المتحدة لا تفوته صلاة بالكنيسة ، وأنَّ رئيس لبنان ذهب إلى البطريق المارونى ليطلب منه البركة ..وأنَّ .. وأنَّ ...

فيظنون أنَّ كل دين فى الأرض له أهله الذين يتمسكون به ويتعصبون له .. أما الإسلام فلا ، كذلك علَّمهم الاستعمار !!

من حق عابد العجْل فى الهند أن يُعلن ديانته ، ومن حق تابع التوراه فى « إسرائيل » أن يُقدِّس كتابه وتلموده .

أما الإسلام فيجب أن تفرغ النفوس من ذَرَّة توقير له ، أو رعاية لحرماته ..

إنَّ وطأة الغزو الثقافى فى الأجيال التى أنشأها وغذّاها ثقيلة أشد الثقل ، إنه صنعها على عينه .

ورسالته الكبرى حطم هذا الإسلام والإتيان على بنيانه من القواعد ...

وقد تبقى عند نفر من الناس بقايا من التدين تثبت سلوكهم وتضبط تصرفهم ولكن الدعاية الهائلة ضد الإسلام تجعلهم يعجزون عن إتيان ما يأتون تحت عنوان الدين الذى يعتنقون .

ونسأل : ما سبب هذا الفتور فى الإقبال على الدين ، والمعالنة بالتمسك بآدابه والأخذ بهديه ، فلا نحير جواباً شافياً ، أو دليلاً مقنعاً .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب : « إنَّ كثيراً من الناس عندنا قد يطوون قلوبهم على احترام الدين والتمسك به . لكنهم - حين يضمهم مجتمع من مجتمعات الحياة التى يغشاها علية القوم وكبار الناس - يتصاغر فى أنفسهم هذا الشعور بالدين ، ويضمر فى كيانهم هذا الإحساس » .

ويرون من الخير ستره عن الناس ، حتى لا يُقال : إنهم متدينون ، وحتى لكأن الدين عار يزرى بأهله ، وسُبَّة يفر الناس منها .

هذا أمر واضح لا ينفع فيه إنكار ..

فحيث تكون الحياة وتكون النعمة والوجاهة ، ينكمش الدين ، ويتعرى منه حتى أهله خوفاً من أن يُقال : إنهم أهل دين !!

فما مرجع هذا ؟ وهل فى طبيعة الإسلام ما يعوق سير الحياة ويسد الطريق على الآخذين بأسباب الوجاهة والجاه ؟

إنه لظلم عظيم أن يُفهم الدين هذا الفهم .

وإنها لخيانة غليظة لأنفسنا أن نُنزل الإسلام فى حياتنا هذه المنزلة ، فلا نتوَّج به رؤوسنا ، ولا نتخذه أوسمة نُحلّى بها صدورنا فى كل مجتمع وفى كل موقف كريم من مواقف الحياة .

إنَّ الدين يتطلب النفوس الكبار .. وقد صغرت نفوسنا فصغر فيها كل معنى كريم أو مثل فاضل .

إنَّ النفوس المريضة تنقلب فيها حقائق الأشياء كما تنقلب صور المرئيات فى العين المريضة وكما تنحرف مذاقات الطعوم فى الفم السقيم !

ونحن قد أُصبنا فى القرون الأخيرة بعلل وأوجاع أفسدت حياتنا ، وأنزلتنا منازل الهون فى دنيا الناس .

وكان من خداع المستعمرين أن صوَّروا لنا الدين فى صورة العدو الذى دخل علينا بهذا الضعف والهوان ، وكان السبب فى هذا التأخر الذى صرنا إليه .

ولقد عمل الاستعمار جاهداً على أن يُمكِّن لهذا الضلال من نفوسنا بما أذاع فينا بأساليبه وصنائعه من مفتريات على الدين وتهجم عليه ، وازدراء لأهله واستخفاف بمنازلهم فى الحياة ، وحرمانهم من كل مكان كريم فيها .

ونحن اليوم فى بعث جديد .. حطمنا قيود الاستعمار ، وأزحنا معالم الضعف من مرافقنا المادية .

ولا زال موقفنا من الدين كما كان من قبل ، لم نحاول أن نجد فيه قوة دافئة نستند إليها ، ومجداً عظيماً نحرص عليه .

ولا زالت نظرتنا للدين والمتدينين نظرة باردة فاترة لا تُغنى شيئاً ولا تُوحى بشئ .

ماذا فى الدين ؟ . ولِمَ نخاف صحبته فى انطلاقنا مع الحياة ؟

هل الدين شئ والحياة الكريمة الرفيعة شئ آخر ؟

لندع الأصول العامة للإسلام ، ولنترك ما قرر من مبادئ المساواة المطلقة بين الناس ، وما قرر من صيانة الدماء والأموال والأعراض ، فذلك أوضح من أن يحتاج إلى بيان .

إنَّ المقياس الصحيح فى هذا العصر للرقى الإنسانى ، هو فيما يبلغه الإنسان من رقة الحس ورفاهية الوجدان وذكاء العقل .

وقد ارتفع قَدْر الأمم الغربية فى نظرنا لما بلغته مجتمعاتها من منزلة عالية فى هذه الصفات .

وكان غاية طُلاَّب الكمال عندنا أن ينالوا حظاً فى هذه الصفات ليجدوا فى أنفسهم طمأنينة الرضا ، وليجدوا أنهم شئ فى عالَم التمدن والرقى .

وفى أدب الإسلام مناهج دقيقة محكمة لمراسم الذوق السليم ، والحس المرهف ، والوعى اليقظ ..

لقد تحوَّل الإسلام بالعرب من جاهلية غليظة جافة ، وبداوة صلدة شائكة ، إلى حياة مخصبة بأرق العواطف ، وأنبل الأحاسيس .

حتى لكأن رجل الجاهلية التى عاش بها عمراً طويلاً قد خلقه الإسلام خلقاً آخر فى شهور أو سنوات عاشها فى الإسلام .

ما ترك الإسلام شيئاً يتجمل به الإنسان ويبلغ به مراتب الكمال فى عقله وخُلُقه إلا كان ذلك من صميم دعوته ونهج تعاليمه .

* * *

إضعاف الوازع الدينى

إنَّ إعادة بناء الأمة الإسلامية مرة أخرى بعد ما خرَّب الاستعمار عامرها وجفَّف غامرها أمر يحتاج إلى جهود مضنية .

وليست الإعادة المنشودة شق شوارع تقوم القصور المنيفة على أكنانها ، ولا تجميل شواطئ الأنهار والبحار وبث الأرائك المريحة حولها . كلا .. ولا هى نقل المصانع والآلات وتشغيل ألوف العمال فيها .

إنَّ ذلك - وإن مسَّت إليه الحاجة - لا يعنى بناء أمة تنفع نفسها إذا كان الغزو الأجنبى قد نجح فى تخدير أعصابها وإماتة ضمائرها واستلال اليقين من أفئدتها والهدف العالى من ضمائرها ..

ذلك أنَّ الأمم تفتقر قبل كل شئ إلى العقيدة التى تُوقِدُ نشاطها ، والغاية التى تكدح لبلوغها ، والحداء الذى يهوِّن عليها مصاعب الطريق ، والعزاء الذى يصبرها على لأواء الحياة .

فإذا جفت هذه المعانى فى أمة لم يُغن عنها شئ ما ، وهى صائرة حتماً إلى إدبار !

إننى عندما أرى دبابة تسير فى الميدان يعجبنى هيكلها المتين وبناؤها الحصين ، وأنظر إلى هذا الحديد المتشابك المتراكب وهو يتهادى وئيداً شديداً يطحن أمامه الصخر ويقذف باللهب فأقول : ما أروع هذا البرج وما أسرع فتكه فى أجسام العدا .

لكنى - وأنا أهمس بهذه الكلمات - يعاجلنى شعور آخر بالتريث والاسترخاء : إنَّ المهم فى قائد الدبابة ، لا الدبابة نفسها .

إنَّ مصير المعركة معلَّق بالرجال الذين يملأونها ، ووثاقة إيمانهم ورباطة جأشهم وطول صبرهم ويشاشة رجائهم ... إنَّ ذلك هو اللَّبنة الأولى فى النصر .

وعندما كنتُ أرى أبنية قصر العينى فى القاهرة وألمح الأدوات والاستعدادات لمداواة المرضى . تأخذنى الدهشة لضخامة هذا المستشفى ورحابة غرفه وكثرتها . ووفرة وسائل التمريض وأسباب الشفاء ، ثم وذلك الجيش الكثيف من الأطباء والأعوان والخدم ، وذلك المدد الدافق من النفقات المبذولة والمطالب الميَّسرة .

ومع هذا المظهر المطمئن فإنَّ الفؤاد لم يكذب إذا أبدى قلقه وأسرَّ وجله .

حدثنى أولاً : هل تتوفر مشاعر الرحمة وعناصر الأمانة ؟

وهل ينضبط سير الأمور تلبية لنداء الواجب ، وأداء لحق الجماعة ، وحياطة لكرامة الإنسان ؟؟

إننى أمُرُّ أحياناً بالليل قريباً من هذا المستشفى فأتساءل : تُرى أهناك عين ساهرة ترعى المرضى ، أم عين زائغة لموظف شاب يبحث عن فتاة تطاوعه ؟

إنَّ الغزو الثقافى الأوروبى بذل جهوده كلها حتى يُوجِد شباباً لا إيمان له .

شباباً لا يعرف اللّه فضلاً عن أن يخشاه أو يتطلب رضاه .

نعم .. لقد ركَّز الاستعمار ضغطه كله على القلوب أولاً حتى تُفَرِّغ من العقيدة ، واستبدَّ به الجنون وهو يُخرِّب كل ما أودع الإسلام فى القلوب من تقوى ورعاية .

إنه مستميت فى تكوين أجيال تُضَيِّع الصلاة وتتبع الشهوات ..

إنه مستميت فى تكوين أُمة تستثيرها الغرائز الدُنيا ، وتذهل عن معانى الأمور وتتبع سفاسفها .

وعندما يحقق هذه الأمنية يعلم أنه قضى القضاء المبرَم على الأمة الإسلامية .

فما قيمة ثقافة لا تعتمد على إيمان ، ولا يحصنها خُلق ، ولا يشدها مثل أعلى؟

عندما سرق الاستعمار « الإسلام » من قلوب الشباب الذين طعموا من موائده وربوا فى حجراته كان يعلم أنه سرق الوقود من خزان السيارة أو القطار.

والشاب الذى لا عقيدة له يمكن أن يُدفع بالأيدى إلى الأمام .

بَيْدَ أنه لن يندفع من تلقاء نفسه ، وهيهات أن يقطع شوطاً أو يبلغ هدفاً ..

ومن هنا نرى ألوف التلامذة من المسلمين كُسالى ، وكذلك ألوف الموظفين ، وألوفاً أخرى من هنا وهنالك ..

إنَّ الاستعمار الذى احتل البلاد الإسلامية منذ قرن أحدث ثقوباً شتَّى فى صدورهم تسرب منها اليقين ، وتسرب معه النشاط والإقدام .

ومن المستحيل أن تنهض أمة دون إيمان ما ..

إنه لكى تنهض أمتنا لا بد من رد الاعتبار إلى هذا الدين المُهان . لا بد من إعادة الاحترام إلى الإسلام الذى يتسلى أى وغد باللغط عليه والنيل منه .

لا بد من الاعتماد على هذا الإسلام فى شئون التربية ، ومن توفير القداسة لنصوصه وتعاليمه التى استقتل الغرب فى تهوينها كى يخلق أُمة معتلة لا جهد لها ولا أمل ، ولا رجاء فيها ولا مُعوَّل عليها ..

إنَّ إضعاف الوازع الدينى بلاء ذريع الفتك بكل ما نحرص على بقائه وصيانته ، بل هو أقصر الطرق إلى إفناء أمتنا مادياً وأدبياً .

وقد نزل الاستعمار بالشرق فوجد به يهوداً ومسلمين ونصارى .

فاستبقى كِلاَ الفريقين من يهود ونصارى على ديانته ، واجتهد فى سلخ المسلم من عقيدته حتى يشب المرء المسلم وهو سقيم الضمير فارغ اللُّب مبلبَل الفكر ..

وبذلك يكون غيره مرتبطاً بعقيدة يتحمس لها وينشط لخدمتها ويحب إتباعها .

أما المسلم - بعد ما مسخه الاستعمار على النحو الذى ذكرنا - فهو يحيامنفلت القيادة مضطرب الخطو لا يدرى يُصادِق صديقاً أو يُعادِى عدواً ..

وأثر العقيدة فى توجيه السلوك وتكثير الإنتاج وضبط الأعمال لا يمكن إنكاره .

وقد يكون الإنسان ذا حصيلة ضخمة من المعرفة فى أى شأن من شئون الحياة .

ولكن خلو نفسه من الإيمان الدافع يجعله أشبه برجل يملك عشرات الأسلحة ولا يُحسن استعمال واحد منها .

إنَّ شخصاً آخر بعصاه ، أو بذراعه ، يستطيع التغلب عليه .

وهذا الذى يملك أنواع السلاح ويعجز عن استخدامها ربما جاء عجزه من الكسل والفتور لا من الجهل وقِلّة الدراية .

ومن هنا نرى الرجل الضعيف الإيمان الواهى الاعتقاد تتوافر لديه طاقات كثيرة للعمل والخدمة ، ومع ذلك فهو مخبول مربوط لا يُنتج شيئاً طائلاً .

أما غيره من أصحاب الرغبات المشبوبة والقلوب المشحونة فهو يخلق من الفراغ شيئاً ..

وقد قيل : الحاجة أُم الاختراع ، والحاجة لا تولد فى جو البلادة ، ولا تنبتها أرض موات .

إنَّ العقيدة أصل هائل لكل نهضة .

وإذا أفلح الاستعمار فى توهين العقيدة الإسلامية وحدها مع بقاء العقائد الأخرى تُسيِّر أصحابها - بغض النظر عن نصيبها من الحق والبطلان - فمعنى ذلك أنه دوَّخ نهضتها ، لا ، بل وقَّف دولابها ، وسوَّد مستقبلها .

انظر ، كم خرَّجت جامعات أوروبا من فتياننا وفتياتنا ؟

ومع ذلك فهم يعودون وكثرتهم الكبرى لا تؤدى عُشر ما يؤديه زملاؤهم المتخرِّجون معهم فى هذه الجامعات نفسها .

بل إنَّ الشيوعيين أحسن منهم حالاً فهم أصحاب مبدأ .

أما هؤلاء فإنَّ الغذاء العلمى والروحى الذى تلقوه فى البيت والمدرسة جعل منهم أقواماً تُحسن الوجاهة والمظاهر ولا تُحسن العمل والحركة .

وتعنى بمطالب الحياة المادية التافهة ، ولا يشغلها مثل أعلى أو جهاز رفيع .

يجب أن تعود للإسلام مكانته الجلية فى نفوس أتباعه .

وعندما تصدق هذه العودة ، فإنَّ الحياة ستدب فى جهاز حكومى عفن ، وفى مئات المدارس الصغرى والكبرى ، وفى عشرات المصانع والشركات ، وفى سائر أحوالنا المادية والاجتماعية .

إنَّ المعتَقد المسيحى فى الغرب موضع عناية كبيرة ، وأثره متغلغل فى توجيه السياسة الأوروبية ، وشاراته فى المدارس والجامعات بارزة ، والانبعاث عنه فى وجوه النشاط المختلفة أمر غير منكور .

فلماذا يُفرض على الحياة العامة فى بلاد الإسلام أن تتخلى عن صلتها بدينها وأن تولى ظهرها له ؟

وقد قامت هناك فلسفات عنصرية ونزعات قومية لم تتخل عن المسيحية فى دعم مبادئها .

فالنازية والفاشستية كلتاهما استظهرت بالكنيسة فى سياستها ورسمت الصليب على رايتها .

والبلاد التى نبذت النصرانية مثل « روسيا » جعلت من الشيوعية عقيدة مذهبية تملأ الفراغ الذى أبعدت عنه الديانات المتروكة .

بل قد يكون الإيمان بالشيوعية أوسع نظرة إلى الرفعة الى يعمل فيها من الإيمان بالمسيحية .

فهل تمتلئ نفوس الناس بعقائد الأرض والسماء ويُحظر علينا وحدنا أن نستمسك بديننا وأن نأخذ أولادنا به ؟

ذلك ما تريده الصليبية الغازية !

إنها تعلم أن المسلم لن يرتد إلى اليهودية ولن يرتد إلى النصرانية .

فليترك الاسلام وكفى !!

وليكن « وجودياً » أو « إباحياً » أو « شيوعاً » أو ما شاء من النِحَل .

والنتيجة أننا لن نستطيع أبداً بناء أُمتنا وبعث الحياة فيها .

لأن أُسلوب نهضتنا لا بد له من مبدأ قائم وسناد روحى واضح .

أى لا بد له من الإسلام ، والإسلام الذى عشنا به وله دهوراً فكنا سادة مقسطين لا نَظلِم ولا نُظلَم .

* * *

منذ قرنين والزحف الصليبى يتدفق على بلاد الإسلام وهو بادى القوة حاد الأظفار .

والمسلمون يتراجعون أمام امتداده فى كفاح مُرّ المذاق كالح العُقبَى .

حقاً .. إنهم ما تركوا شِبراً إلا وعليه من ضحاياهم ركام .

بَيْدَ أنَّ فوضى الحكم والعلم ، وطبيعة التخلف فى الدين والدنيا جعلتا الأُمة الإسلامية الكبيرة تترنح تحت وطأة الضربات المتتابعة ، ثم تسقط فريسة استعمار أسود الضمير طافح الشهوة .

وانفردت الصليبية فى الأرض العريضة بالبأس والسلطان . فماذا صنعت ؟

لقد امتلكت أزِمّة العالَم ، واحتكرت سوق الدعاية ، وسخَّرت القُوَى الجديدة من مدنية وعسكرية ، وفسحت المجال لتعاليمها وحدها وضيَّقت الخِناق على كل دعوة دينية أُخرى ، وساقت رجالها فى المدارس والجامعات والأندية والمستشفيات ودور الصحف والإذاعة والمسرح .

ونظَّمت برامج التبشير فى المدائن الزاهرة والمجاهل الطامسة .

وأخرست الإسلام وأهله حتى لا يُسمع لهم صوت ، بل حتى يبدو هذا الدين وأتباعه فى إطار البِلى يدعو للسخرية

فماذا كانت نتيجة هذا الجهد الراكض الموصول مائة سنة ؟

هل أصلحت الصليبية حال العالَم ؟ هل وطّدت أركان الإيمان ؟ هل زيّنت جانب الفضيلة ؟

هل مهّدت ليوم آخر ، وعلّقت القلوب بثواب الله أو حذّرتها عقابه ؟

هل أشاعت عدلاً أو رحمة ؟

هل نقلت الإنسانية إلى أمام أو رفعتها قليلاً إلى أعلى ؟

كلا ... إنّ هذه الصليبية لم تستطع أن تُسدى خيراً إلى الحياة المحرومة الحائرة .

ونظرة إلى فلسفة السلوك وسياسة المعاملة التى تسود الدنيا الآن تجعلك تُجزم بهذه الحقيقة الخطيرة .

قال الأستاذ « أحمد خليفة » مدير المعهد القومى للبحوث الجنائية فى حديث عن أسباب انحراف الشباب : سنقتصر على ناحية واحدة تتصل بموجة المادية التى عرفها العالَم الحديث فى بداية القرن التاسع عشر ، والتى ظل بعدها يرتفع من ذلك الحين . فإننا نعتقد أنّ هذا الجو المادى الذى اكتنف حياة الإنسان فى هذا العصر المسئول أساساً عن تهئة البيئة لعوامل الانحراف النفسى والسلوكى .

ربما لا يكون هذا الجو المادى فى بلادنا ملبّداً إلى الحد الذى تعرفه بلاد أخرى .

ولكن العالَم اليوم قد جعلته سرعة المواصلات ، وتشابك العلاقات عالَماً واحداً ولم يعد فى الإمكان أن تنكمش حضارة وتنطوى على نفسها إلى مدى طويل .

ولما كانت الحضارة المادية هى القابضة على زمام الطبيعة ، عن طريق التقدم العلمى والفنى ، فإنّ هذه الحضارة هى التى تزحف اليوم على كل البقاع لتنشر فيها رسالتها عن قصد أو عن غير قصد .

والمادية تهدف إلى تحطيم المعانى والمثاليات ، وإلى تجريد الأشياء من كل قيمة عدا قيمتها التى تَقدَّر بالمال ، بل وصل الأمر إلى تقدير الإنسان بالمال ! أصبحنا نسمع عن إنسان يساوى مليوناً ، وابتسامة تساوى مائة ألف ! أصبح الكسب المادى مسوغاً للإقدام ، والخسارة مسوغاً للإحجام !

الذى يسير على قدميه لم يعد يفكر فى متعة للسير فى أحضان الطبيعة بقدر ما يفكر فيما يعود عليه من قدرة بدنية تعينه على العمل والإنتاج والكسب .

أصبحنا نُقدِّر حياتنا على أساس ما حققناه من كسب مادى دون أن نُدخل فى الحساب عملاً من أعمال الخير ، أو لفتة من لفتات القلب ، أو لحظة من لحظات الحب والتضحية .

الحياة أصبحت مشروعاً يجب أن ينجح ويحقق أرباحاً ، لم تعد الحياة - كما كانت - عطية الخالق نقنع بها ونحمده من أجلها ، لهذا شاع الانتحار فى عصرنا برغم أنَّ حياتنا أصبحت أشد يُسراً ، وانتشر الإدمان والمرض العقلى وانهيار الأعصاب .

وقد حذَّر العلاَّمة الفيسوف « شوايتزر » بنى عصره من طغيان الارتقاء المادى على الجوانب الروحية فى الحياة فقال بحق : « إنَّ المدنية التى لا تعنى بغير جوانبها المادية كسفينة مكسورة الدفة تشق طريقها إلى الكارثة » .

إنَّ النضج المادى - لا الروحى - أبرز سمة تنذر بخطورة مدنية العصر ، حتى اختل توازنها . وفى غمرة حماستنا لما حققته هذه المدنية من قوة ورفاهية ومعرفة ضللنا الطريق ، لقد غالينا فى تقدير انتصاراتنا وأغفلنا خسائرنا الروحية .

إننا لنتسائل فى حيرة : فى مثل هذا المجتمع الذى يعبد المادة واللَّذة ، أين تقع الأخلاق ؟ وأين يقع الدين ؟

السلوك الخُلُقى مبناه - مهما يتجه - أنَّ الإنسان هو غاية كل شئ ، كيف إذن يكون الخُلُق شيئاً مذكوراً فى حياة تجعل الإنسان آلة مسخَّرة من أجل القيم المادية ؟

حقاً إنَّ هناك أخلاقاً فى هذا العصر ولكنها أخلاق ضيقة الأفق ، لعلها لا تعنى بغير فكرة الأمانة فى المعاملات .

هذا المعنى الضيق حجب إلى حد كبير فكرة الخير والشر .

ولا شك أنَّ الأمانة فضيلة ، ولكن حب الجار ، ومشاركة الآخرين آلامهم والتضحية فى سبيل المُثُل ليس مما تشمله الأمانة .

ومع ذلك .. فما زالت الأخلاق التقليدية قائمة ، قائمة منذ أوقدت الأديان جذوتها ولأنها تراث آلاف السنين ، إننا نعيش على الشعلة التى أوقدتها أيدى مَن قبلنا ، إن لم نغذها بوقود جديد فمصيرها يوماً إلى الفناء .

والدين ؟ إن كنا نقصد بالدين شيئاً نؤمن به فلا شك أنَّ لهذا العصر ديناً - هو النجاح !

وإن كنا نقصد عبادة الإلٰه رب الكائنات ، فإنَّ فلسفة هذا القرن لا تتفق مع انتشار هذا الدين .

هذا القرن الذى لا يرتفع بصره إلى أرفع من أمانة المعاملات ، ولا شأن له بعد ذلك بالقلب والحب والعاطفة ، هذا القرن يُقدِّم قرابينه للسوق ومن بعدها الطوفان ، فكيف يعنى الناس برب الكائنات ؟

والبعض يؤمن بوجود اللّٰه .. وانتهينا .

والبعض لا يؤمن به .. وانتهينا أيضاً .

العبادة بدون ألم ، والإيمان بدون ألم ، ليس هناك تقوى ولا ليال مؤرقة ، ولا دموع إيمان ولا أنين شك ، ليس بين المؤمن وغير المؤمن فارق كبير ، كلاهما وضع إيمانه - أو شكه ، أو كفره - على الشاطئ ثم خاض نهر الحياة بحثاً عن الصيد السمين .

اللّٰه لم يعد فى قلوبنا ومن حولنا - إنه على أحسن الفروض - « المدير العام » لمؤسسة ضخمة اسمها الكون !

لقد كان الدين يحدد للإنسان طريقه فى الحياة ويضع لحياته هدفاً ، ثم جاء

العلم ، وحار الإنسان أين مركزه فى الحياة ؟ حطّم العلم أهدافه ، ولم يُقم بدلها أهدافاً أخرى ، وحار الإنسان ما هدفه فى الحياة ؟ فانطلق وراء رغباته ، يتخبط فى الظلام .

كان البدائى يُعد عشيرته أو قبيلته هى العالَم ، وفى القرون الوسطى امتد العالَم ليشمل الأرض كلها ، وفى القرن السابع عشر ظهر أنّ الأرض ليست الخليقة كلها بل هى جانب من الكون ، ومع ذلك ظل الكون بالنسبة للإنسان شيئاً محدوداً ، حتى جاء القرن العشرون بكشوفه العلمية الضخمة التى أذهلت الإنسان وعمّقت لديه الشعور بأنه ليس هدف الخليقة أو مركز الكون ، وإذن فكل شئ ممكن ، وإذن فنحن هباء ، وإذن دعونا نطع حوافزنا ونظفر بالمتاع !

ولكن النفس البَشرية أشد تعقيداً من أن تقبل إطلاق العنان للنزعات .

ومن ثَمّ انتشر الشعور بالنقص ، والشعور بالذنب ، وأصبحنا نعيش فى عصر عصابى رائده اقتناص المتعة والاستسلام للقلق !

وكان للمادية صداها الضخم فى شئون الجنس ، وهو أخطر طاقة فى الشخصية الإنسانية فأصبح الجنس يعنى الإغراء .

جرّدت المادية الشهوة من معانيها التى غلّفتها آلاف السنين ، أفقدتها معنى الحب الذى ملأ قلوب أسلافنا واتجه بهم إلى السماء ، والرسل ، والقديسين ، والآباء والأمهات .

وسخّر الفن نفسه لهذا الإغراء الجنسى . الرسم الذى سعى دائماً إلى إبراز المشاعر ، اتجه إلى إبراز المفاتن وإهاجة الحس ! والموسيقى التى كانت تدعو إلى الارتفاع ، أصبحت تدعو إلى الحضيض ! . أما الحب فأصبح فناً له قواعده وله صناعته ، وأصبح القلب البَشرى مجرد آلة مُولِّدة للطاقة وليست تلك الطاقة من الخير والفضيلة التى تشعر فيما حولها وتسجد لها الأفهام .

فى غسق مدنية ذات قيم ، وفجر مدنية تقوم على رقائق الفولاذ ، وعلى ضجيج المادة وهى تسحق ما حفل به تاريخ البَشرية من أرق المعانى يعيش شباب العالَم اليوم .

وهذا كله حق .

إنَّ فى العالَم جفافاً روحياً يحرق حضارته ويجعل شياطين الذهول والفجور هى التى تجوب رحابه شرقاً وغرباً . فما علاج ذلك النكر ؟

هل علاجه أن تظل الصليبية حاقدة على الإسلام ، منكرة عليه حق الحياة والدعاية والانطلاق .

إنَّ الإسلام فى إبّان قوته الأولى تركها تعمل إلى جانبه وتعرض ما لديها إلى جوار ما لدى الإسلام من عقائد ومبادئ .

وكان هذا كسباً للعالَم ، وتهيئة لبذور الإيمان وأسباب الخصب وأنواع الازدهار .

وماذا على المسيحية لو تركت الإسلام يدعو إلى اللّه ، ويغرى بالعمل الصالح ، وينذر بالدار الآخرة على النحو الذى جاء به ؟

مَن يدرى ؟ ربما استراح إليه مَن ينقبض عنها فتكسب الحياة مؤمناً بدل أن يتحول هذا المخلوق إلى ملحد بالدين كله .

مَن يدرى ؟ ربما كانت لدى الإسلام أدوية شتّى تشفى تطلع النفوس إلى الشهوات الحرام ، وحصانات تمنعها من التردى فى مهاوى الأثرة والظلم والعدوان .

فلماذا يطوى ذلك كله تحت ضغط الاستعمار الجائر ، وينكمش أمام حقد العدوان المسلح ؟ .

ولنفرض الإسلام ديناً فارغاً من هذه الطاقة التى يدعيها لنفسه .

فما المانع من تركه يواجه عواقب دعواه التى لا أصل لها - كما يرى خصومه ؟

وما هذا التألب على مخاصمته وإحراجه ؟

إنَّ العالَم لن يعرف السلام ما بقيت تحكمه نوازع البغى والحسد .

* * *

بيوت العبادة

من مقارنة سريعة بين أحياء القاهرة فى الحضارة الإسلامية ، وأحياء القاهرة فى ظل المدنية الحديثة يستطيع أى رجل خالى الذهن إصدار حكم عادل صارم ، بأنَّ المساجد لحقها ظلم فادح ، وأنها تجوهلت بطريقة يزرى بالإسلام وأهله ..

فالمساجد فى أحياء « الغورية » و « الدرب الأحمر » و « الخليفة » و « الأزهر » وما إليها تكفى الروّاد وتتسع للمزيد ، وإن كان الإهمال قد كساها بثوب من البلى لا يخفى على الناظرين ...

أما حيث امتد العمران فى العصور الأخيرة ، وانتشرت المبانى فى « شبرا » و« الزمالك » و« الزيتون » و« مصر الجديدة » فإن الشُحَّ فى بناء المساجد ظاهر ..

بل إنك تخترق شوارع كبيرة ، وتمشى مسافات طويلة دون أن يقع بصرك على مسجد واحد !!!

ولأضرب لك مثلاً من الواقع المحسوس : سِرْ من « ميدان التحرير » إلى « ميدان رمسيس » فلن يلقاك مسجد واحد ، ويمكنك أن تُحصى بين الميدانين سبع كنائس سامقة ...

ثم استأنف المسير إلى ضاحية « مصر الجديدة » فلن تجد كذلك شيئاً من البيوت التى أذِنَ اللّه أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه ...

ولا داعى لإحصاء الكنائس ... وحسبنا أن نقول :

إنَّ فى « مصر الجديدة » وحدها ٣٤ (أربعاً وثلاثين) كنيسة للمسيحيين وفيها سبعة مساجد للمسلمين ... !!!

ولما كان المسيحيون عُشر عدد المسلمين - وفق آخر إحصاء - فقد كان المفروض أن يكون للمسلمين فى هذى الضاحية ٣٤٠ (أربعون وثلاثمائة) مسجد ، أو يكون للنصارى كنيسة واحدة بجوار المساجد السبعة التى للمسلمين فى مصر الجديدة ..

غير أنَّ المدنية الحديثة - ويقال إنها لا تتعصب لدين ولا تتعصب ضد دين - هذه المدنية وضعت خطتها ببصر ، ونفذتها بأناة وتعمد ، وقصدت قصداً صريحاً أن يندرس الإسلام وتضمحل شعائره فى العمران الجديد وأن تبقى المسيحية وحدها ...

وضاحية مصر الجديدة ليست إلا مثلاً لغيرها من البقاع التى يمتد فيها العمران ولا يمتد فيها الإيمان وهو ما تلحظه بسهولة فى كل مكان .

إنَّ منطقة الرمل بالإسكندرية - وهى نصف المدينة - بها فوق السبعين كنيسة ، على حين ليس للمسلمين - وهم كثرة السكان - غير بضعة مساجد .

لماذا يا قوم نُعامَل بهذه الضغينة ؟ ولماذا تُبذل هذه المحاولات السيئة لإظهار الكثرة المسلمة مُحقَّرة العقيدة مغموصة الشارات ؟ .

إنَّ المسجد فى المجتمع الاسلامى ضرورة ما مثلها ضرورة ، وأتباع هذا الدين مكلَّفون بالتردد عليه خمس مرات فى اليوم .

ثم هو يضم إلى ساحة العبادة مرافق للنظافة والتطهر تؤدى خدمة جليلة للحياة العامة .

ونحن - مع احترامنا للنصرانية وحفظنا لحقوق أتباعها - نرى أنَّ صلتهم بالكنيسة لا تعدو ساعة فى الأسبوع ، وأنه ليس من المستساغ بذل الأموال الطائلة فى تشييدها كأنها قلاع .

إنَّ ذلك فتح لباب منافسة لا طائل وراءها ولا نفع للجماهير منها ، وإنه من الواجب بناء بيوت العبادة للحاجة فحسب .

أما بناؤها لغرض فرض الطابع المسيحى على بلد تسعة أعشاره مسلمون فذلك جنون ، وهو ذريعة إلى شر مستطار .

قلت : إنَّ الحضارة الاسلامية بارزة فى أحياء القاهرة القديمة وهى حضارة لم تحاب المسجد ولم تجر على الكنيسة .

بل أقامت من المساجد ما يكظ المسلمين دون نقص .

ومن الكنائس ما يكفى المسيحيين دون زيادة .

لكن الموقف الآن تغيَّر تغيراً يستدعى التأمل .

فإنك تمر بميدان « التوفيقية » فى القاهرة فتجد نحو سبعة آلاف مسلم يصلون الجمعة فى الطريق العام ، يفترشون الحصير أو ورق الصحف . أو الأرض العراء .. مساكين لا مسجد لهم !!!

بينما قريب منهم ، وعلى مسافة مئات الأذرع جملة كنائس متجاورة لا يدخلها يوم الأحد إلا نفر يُعَدون على الأصابع ...

أما الأحياء التى تكاثف فيها السكان ، فجمهور المصلين يحتاط بالمسجد ويتناثر حوله يستقبل الحر والقر .

إنَّ القاهرة عاصمة الأمة العربية الضخمة - تضم الآن قرابة ثلاثة ملايين نسمة [1] .

والمساجد التى بها هى التى بُنيت يوم كان السكان عُشر هذا العدد لم تزد شيئاً يُذكر ...

فهل جمدت بيوت العبادة الإسلامية كى تبلى مع الزمن ، وتذهب مع الماضى ؟

واليوم أقرأ فى مجلة المصور كلاماً يستحق التسجيل ، وهاك نصه :

« أريد أن أستجوب الأستاذ الشيخ « أحمد حسن الباقورى » - وزير الأوقاف - : هل فكَّر سيادته مرة فى الطواف بشوارع العاصمة عند صلاة الجمعة ، ليرى أنَّ الدنيا لا تزال بخير ، وأنَّ الإسلام لا يزال بخير ، وأنَّ بيوت الله عامرة إلى حد أنها تضيق بالمصلين . فلا يجد أكثرهم مكاناً له إلا فى الطريق العام فهو يفترش الصحف ، وتحرقه حرارة القيظ فى الصيف ، ويغرقه وابل المطر فى الشتاء ؟

---

(١) كان هذا يوم إصدار الطبعة الأولى للكتاب (الناشر) .

إننى أطالب الأستاذ الباقورى بأن يطل مرة من نافذة وزارته ، ليري المسلمين أمام « الجامع » الملاصق لها .. « جامع چركس » ليراهم وقد سدوا الطريق وخفضوا جباههم لله فى عرضه وعلى أرضه !

ثم أطالبه بأن يُقَوِّت على نفسه مرة صلاة الجمعة - وسيغفر الله له هذه المرة - إذا هو طاف خلالها بطرقات العاصمة ، ليرى المشهد نفسه ، الذى يراه أمام « جامع چركس » ، أمام جامعى « الكخيا » و« أولاد عنان » . وكل جامع فى البلد .

بل إنه لو كلّف نفسه مشقة الذهاب إلى شارع « عرابى » - مثلاً - فسيرى شارع سوق « التوفيقية » وقد تحول إلى مسجد فى العراء ..فى عرض الطريق .. لأنَّ هذا الحى كله ليس به مسجد واحد .

ولو زاد سياداته نفسه مشقة ، فسيرى أحياء كثيرة شأنها شأن ذلك الحى .

وأشهد أننى لم أر واحداً من أبناء العقائد الأخرى يؤدى صلاته فى الطريق ، فى أى بلد من بلاد العالم .

ولكن الإسلام دين سمح ، يبيح لصاحبه الصلاة فى أى مكان .

بَيْدَ أنَّ وزير الأوقاف لا يجوز له أن يستغل هذه السماحة فى تعذيب المصلين بقيظ الصيف وبرد الشتاء .

وإذا كانت ميزانية الوزارة لا تسمح ببناء مزيد من المساجد ، فلماذا لا تتحول المدارس مثلاً ، وهى معطلة يوم الجمعة ، إلى مساجد يؤدى المسلمون فيها فريضة الصلاة » ؟

وليت وزارة التربية والتعليم ترضى أن تكون مدارسها مساجد يوم الجمعة .

إنَّ أغلب المسيطرين على هذه الوزارة يوجلون من أى سمة إسلامية تصبغ المعاهد والجامعات .

كأنما كُتب على دور العلم عندنا أن تعيش بلا نسب ولا وجهة ، وذلك فى بلادنا وحدها .

أما جامعات الغرب ومدارسها فإنَّ الصلبان فوقها والكنائس فى مداخلها ، وثياب الكهنوت يرتديها الرجال المسئولون حتماً عند توزيع الإجازات العلمية الكبرى .

ما أتعس حظ الإسلام !!

ولنترك « وزارة التربية والتعليم » إلى « وزارة الأوقاف » وهى موضوع القضية المعروضة .

ولست هنا أحاول الدفاع عن سياستها فى رعاية المساجد .

ولكنى أعرف قصة لجامع « چركس » هذا . ينبغى أن تُذاع .

فقد وضعت الوزارة مشروعاً بإعادة بنائه موسعاً مجملاً .

وعُرِض المشروع على بلدية القاهرة لإقراره ، وصادف ذلك صدور قانون يمنع هدم العمارات القائمة وإعادة بنائها .

ورأى رؤساء البلدية - وهم مهندسون أذكياء جداً - أن يطبقوا القانون على المسجد (!) كأنَّ وزارة الأوقاف ستهدم المسجد كى تؤجره بعد تجديده بثمن أغلى ..

وبقى المسجد على حالته الرثة وضيقه البالغ .

وعندما تُلقى نظرة على مبنى مسجد « الكخيا » وتقارن بينه وبين العمارات الوضيئة الرشيقة المقامة حوله تشعر بُغصَّة .

وأعرف أنَّ الوزارة تساوم البلدية منذ سنين كى تسمح بضم القطعة المجاورة له وإعادة بناء المسجد بعد دفع ثمن مناسب للأرض التى ضُمت .

ولكن البلدية قاومت وتراخت ولا أدرى ما تم إلى كتابة هذه السطور ؟

ولكن الذى يدريه كل مسلم أنَّ مسجد « الكخيا » لا يزال خربة كبيرة فى المنطقة التى يقع بها .

ولا أدرى . هل مهندسو البلدية هؤلاء يكنون للإسلام حظاً ما من احترام ؟

أو يعرفون أنَّ « مصر » عرضت لها ظروف نقلتها من حال إلى حال ؟

لقد كرهوا أن يُبنى مسجد كبير فى ميدان « محطة مصر » يمثل الحضارة العربية ، ويستقبل الألوف الوافدة على العاصمة ، ويسد فقر هذه المنطقة إلى مسجد رحب منيف .

ورأوا - ببصائرهم النيرَّة ، وتربيتهم المدرسية الناضجة - أنَّ خير ما يمثل فى هذا الميدان الشاسع هو تمثال « رمسيس » فرعون مصر القديم قبَّحه اللّه ، وقبَّح النزعة الفرعونية التى أوحت بإقامته .. !!

وأنا أعلم أنَّ « وزارة الأوقاف » كانت على أُهبة كاملة لبناء هذا المسجد فى أرضها وبأموال المسلمين ، لكنها توقفت مرغمة ..

أما المصيبة التى لا تُقابل ببكاء ولا يُسمح فيها لرثاء ، فهى مصيبة تجميل القاهرة .

فإنَّ هذا التجميل اقتضى هدم أربعة عشر مسجداً لوزارة الأوقاف عدا بضعة مساجد للجمعية الشرعية وغيرها .

ونحن مذهولون ، لهذا الصنيع الذى اجترحه الإنجليز السمر .

ويكاد القلب يقف لهذل الصنيع الشائن .

وأثبت هنا أسماء المساجد التى درست معالمها ، وذهبت مع الريح :

١ - مسجد سليمان الغزى	تفتيش ثان
٢ - مسجد العدوى	تفتيش ثان
٣ - مسجد البلخى	تفتيش ثان
٤ - زاوية أولاد شعيب	تفتيش ثان
٥ - مسجد أبى قابل العشماوى	تفتيش ثان

٦ - محمود كاتم السر	تفتيش ثالث
٧ - زاوية الكزرونى	تفتيش ثالث
٨ - شمس الدين أغا	تفتيش ثالث
٩ - زاوية عثمان	تفتيش ثالث
١٠ - زاوية بشير أغا	تفتيش ثالث
١١ - مسجد عز الدين الخطيرى	تفتيش رابع
١٢ - مسجد المسيرى	تفتيش رابع
١٣ - مسجد بشير أغا المستجد	تفتيش رابع
١٤ - مسجد الحفنى	تفتيش خامس

وهناك مساجد أخرى للجماعات الإسلامية نذكر منها اثنين للجمعية الشرعية :

١ - مسجد التنظيم بشارع مجرى العيون البحرى .

٢ - زاوية عثمان بمراسينا .

ولستُ أدرى لماذا ركب السيد « عبد اللطيف البغدادى » وزير الشئون البلدية والقروية هذه الخطة الجائرة ؟

لقد كان العزاء الوحيد من فقدان هذه البيوت التى أذِنَ اللّه أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه ، أن تعهد إدارة البلدية عشرين قطعة أخرى من الأراضى التى تملكها فى الأحياء الحديثة ، وأن تتولى بناء مساجد عليها تكون عوضاً عن تلك التى هُدِمت .

فإن عجزت عن ذلك الصنيع ، قدمت الأرض الصالحة للبناء ، والمال القليل أو الكثير الذى تستسيغ دفعه ، وطلبت إلى « وزارة الأوقاف » أن تُنشئ هذه المساجد ..

ولكن البلدية لم تفكر في شئ من هذا .

ومن أين يجيئها التفكير الطيب ، ومنزلة بيوت الله لدى رؤسائها نزلت إلى درجة الصفر .. ؟

* * *

وزاد الطين بَلّة أن « وزارة الاوقاف » نفسها مهددة بالزوال .

وبين الحين والحين تسمع صحفياً هنا وصحفياً هناك ، يندِّد بوجودها ويستعجل دفن رُفاتها !! .

والحماس الكامن وراء عبارات الطعن فى الوزارة والتهكم على رسالتها يستدعى التأمل .

فإنَّ أصحابه تبرد مشاعرهم وتفتر حرارتهم ، حين يتكلمون عن حانات الخمر ، وصالات الرقص . كأنَّ هذه المؤسسة الدينية أخطر على الأخلاق والآداب من مباءات الرجس والفجور .

ونحن نعلم أنَّ هناك تقصيراً فى أعمال هذه الوزارة يجب علاجه .

ولكن البون بعيد بين ناقد يريد بكلامه تحقيق الصالح العام للدين والأمة .

وآخر يريد بكتابته الإتيان على بقايا الإيمان والخير فى هذه البلاد ...

وعندما صدر القانون بالاستيلاء على الأوقاف الخيرية وتمليكها لصغار الزُرّاع ، كنتُ أرى العجب ...

هذا القانون يفضى بتوزيع نحو خمسين ألف فدان يملكها الأقباط ، ونحو مائة وخمسين ألف فدان يملكها المسلمون على الفلاحين ، بعد أن تتولى الدولة - بطريقة مرسومة كما يقال - الإنفاق على جهات البر لدى الفريقين ..

ومع ذلك فقد كان مندوبو الاصلاح الزراعى يدخلون وزارة الأوقاف كما كان الجنرال « غورو » يدخل دمشق ، ويتعجلون الاستيلاء والتوزيع بلهفة ظاهرة .

فى حين أنَّ أحداً منهم لم يذهب إلى « دار البطريركية » لتنفيذ ذلك القانون .

وهذا عوج فى السلوك يبعث على الريبة ويثير الحفائظ .

ولستُ أتصور أنهم يفكرون فى اجتياح أوقاف المسلمين وحدها . وإن كانت الدلائل تشير إلى ذلك .

إنَّ ذلك مستحيل - كما أعتقد - لكن ما معنى الإسراع هنا والبطء هناك ؟

وعندى أنَّ من الخير إلغاء هذا القانون كما أُلغى مرسوم القانون بإنشاء مديرية التحرير ، فذلك أروح للقلوب وأدعى إلى طمأنينة المؤمنين ..

* * *

وكارثة أخرى حلت بالمساجد ، وأصابتها بضر شديد ... !!!

تجمعت مقدمات هذه الكارثة من سنين طوال أيام الاحتلال البريطانى .

ثم بعد اضمحلال الروح الدينى وسطو الحكّام والكبراء على الأوقاف وتبديد مصارفها فى غير ما أُنشئت له وحُبِست عليه ...

ونجم عن ذلك أنَّ عشرات المساجد لحقها البِلى ، ونال منها الإهمال . فتداعت جدرانها ، وحالت معالمها ، وعطلت مغانيها ...

والعجب أنَّ ذلك يحدث فى بيوت الله عندنا ، فى حين أنَّ الأموال الأمريكية ترد بكثرة لبناء مزيد من الكنائس الشاهقة ، وإن كانت هذه الأموال تظهر فى صورة تبرعات مجموعة من المواطنين وليست عوناً من الخارج لأغراض مريبة .! ونحن - المسلمين - لا بد أن نواجه هذه الحال ، وأن نرصد من الأموال ما يصون بيوت العبادة لدينا ويحفظ مكانتها ويستديم هيبتها .

والمسجد ليس مرفقاً خاصاً لطائفة معيَّنة ، إنه مؤسسة اجتماعية منوعة الاهداف رحيبة الغايات ترتبط بازدهارها أخلاق لا تقوم أمتنا إلا بها .

وليس من المجون أو من الغرور أنَّ الاستعمار يريد الإتيان عليه والإجهاز على رسالته .

إنَّ القضاء على المسجد يعنى إبادة دين ، ومحو تاريخ ، واستئصال أمة .

ولذلك نرى من حقه على الدولة أن تهتم به وأن تعين على بقائه . وأن ترصد من الميزانية العامة ما يحقق ذلك .

كم تظن عدد المساجد المخرَّبة فى القاهرة وحدها ؟ إنها تقارب المائة .

منها نحو السبعين تتبع وزارة الأوقاف عدا ما يتبع مصلحة الآثار ، وما يتبع الأهالى .

ونحن نناشد الدولة أن تتلافى هذه المأساة .

وهاك بياناً بأسماء المساجد المخربة التابعة لوزارة الأوقاف ، ومواقعها .

بيان

بأسماء المساجد الخربة والخرابات [1] التابعة لوزارة الأوقاف بمدينة القاهرة .

التفتيش الأول

اسم المسجد	الموقع
١ – الفضاء المتخلف من مسجد الصالح أيوب	حارة الزهرية بالنحاسين
٢ – مسجد الغورى	خان الخليلى
٣ – الفضاء والإيوانات والخرابة خلف مسجد الملك الناصر	النحاسين
٤ – خربة خلف مسجد برقوق من الجهة الغربية	النحاسين
٥ – خربة خلف مسجد السلطان الكامل بالجهة الغربية	النحاسين
٦ – زاوية جولامد	برجوان
٧ – مسجد الغمرى	مرجوش الجوانى

---

(١) هى المدارس الدينية أو المساكن الملحقة بالمساجد لسكنى موظفيها ، وكان الأقدمون يبنون مع المساجد أجنحة للأغراض الاجتماعية النبيلة .

اسم المسجد	الموقع
٨ - بهى الدين البلقينى	أمير الجيوش
٩ - شمس الدين الزركشى	بين السيارج
١٠ - سيدى كمال	الحسينية
١١ - المدبولى	البيومى
١٢ - زاوية العنبرى	الدراسة
١٣ - زاوية الجندى	كفر الزغارى
١٤ - السلامونى	حارة الكفر
١٥- خربة خلف مسجد الشيخ خليل	كفر الزغارى الجديد
١٦ - مسجد القرافى بدر الدين	حبس الرحبة
١٧ - نور الدين العجمى	الصالحية
١٨ - زاوية خان سرور	خان سرور رقم ٩٥
١٩ - زاوية محمد سعيد شقمق	خان الخليلى.
٢٠ - الشيخ الجبعانى	السبع قاعات البحرية رقم ١٩
٢١ - القاضى بركات الشهير بالمنسى	حارة اليهود الربانيين
٢٢ - زاوية الزنكلونى خامس	سوق السمك القديم
٢٣ - مسجد نجم الدين أول	شارع نجم الدين - باب النصر
٢٤ - خربة خلف دورة المزهرية	البنهاوى

التفتيش الثانى

اسم المسجد	الموقع
١ - ضريح وزاوية أم العش	درب المحكمة
٢ - ضريح وزاوية بهاء الدين	حارة بهاء الدين
٣ - مسجد محمد العراقى	حارة الطمار
٤ - زاوية الدعكى	حارة الدعكى ببير حمص
٥ - شهاب الدين	درب الشرفا رقم ٤٦
٦ - مسجد وضريح الأنصارى	شارع مشتهر بعابدين
٧ - ضريح محمد دقيق العيد	حارة أبو قدرة
٨ - ضريح حسن الأكبر	داخل قصر عابدين
٩ - مسجد مصطفى الصغير	علوة الكوم
١٠ - زاوية وضريح محمد الخباز	حارة النوبى رقم ٣٧
١١ - مسجد خربة ودكاكين	الجامع الأحمر
١٢ - زاوية الأربعين	حارة الأمير حسين المتفرعة من درب عبد الخالق
١٣ - مسجد أبى بدير العريان	أبو الوفا بالفوطية
١٤ - مسجد البرماوية	باب البحر
١٥ - خربة ومساكن تابعة لوقف الست سالمة	باب البحر
١٦ - الجدعلى	درب الخف المتفرع من باب البحر

اسم المسجد	الموقع
١٧ - زاوية إسلامى أغا	زقاق الجامع المتفرع من درب الإبراهيمى
١٨ - زاوية السنى	السد المتفرع من حارة سننات
١٩ - زاوية سعدة	درب سعادة سابقاً - باب البحر
٢٠ - زاوية القوصية	شارع الطواشى
٢١ - زاوية البوارين	حارة البوارين
٢٢ - زاوية محمد زيادة الأنور	شارع بين الحارات
٢٣ - زاوية وضريح أبى طالب	شارع الصبان عطفة المبرقعة

التفتيش الثالث

١ - مسجد الجنيد	الدرب الجديد بالسيدة زينب
٢ - مسجد محمد الكردى	حارة الهياتم درب الجماميز
٣ - زاوية سعد الدين	درب الجماميز
٤ - زاوية أغاشكيان	حارة عمر شاه
٥ - زاوية وضريح الأربعين	شارع الخضيرى
٦ - مسجد شجرة الدر	شارع الركبية
٧ - مسجد بدر الدين الوفائى	شارع بدر الدين الوفائى
٨ - مسجد المسجيين	شارع الجديد طريق المقطم
٩ - زاوية وضريح سيدى عوض	حارة عبد الباقى

اسم المسجد	الموقع
١٠ - زاوية وضريح الشيخ محمد أبى زغلول	حارة اللبودية
١١ - مسجد يوسف الكردى	درب الجماميز
١٢ - زاوية محمد بك عبده	سوق السمك بالبغالة
١٣ - زاوية بمبة فائق خليل	شارع نافعى بالسيدة زينب

التفتيش الرابع

١ - فضاء مسجد الخضيرى	شارع الكورنيش الجديد ببولاق
٢ - زاوية سميحة	شارع الجوابر ببولاق
٣ - زاوية عشش النخل	شارع عشش النخل ببولاق
٤ - زاوية الكسات	شارع الخضيرى
٥ - زاوية بشير أغا	حارة الجامع

التفتيش الخامس

١ - مسجد عبد الله جاويش	شارع النبوية
٢ - زاوية السبع بنات الأيتام	ملاحق لمسجد النبوية
٣ - مسجد العنبرى	درب الدليل
٤ - مسجد الحرشلى	شارع سكة المردانى
٥ - زاوية صالح كتخدا	شارع سوق السلاح
٦ - مسجد محمد سودون	شارع الغندور
٧ - زاوية الروزمانجى	شارع الوالى حسين
٨ - زاوية الأربعين	شارع نور الظلام عطفة المطبعة

اسم المسجد	الموقع
٩ - مسجد بنت المعمار	شارع الألفى حارة العمارشة بالحلمية
١٠ - مسجد عثمان الحطابى	شارع درب سعادة

* * *

ذلك إحصاء ناطق الدلالة ...

ولن نُعقِّب عليه إلا بسؤال واحد . كم عدد الكنائس المهدَّمة ؟

لا شئ ! لا شئ !

فلتبتسم شفاه ، ولتنفطر قلوب .

* * *

الموظف النموذجى

قلت آنفاً : إنَّ سياسة الاستعمار القريبة المدى والبعيدة المدى تستهدف القضاء على الإسلام وتسويد يومه وغده .

وقد أُعدت لذلك أجهزة حكومية معيَّنة اختارت أعضائها بدقة ليؤدى كل منهم دوره المنوط به فى حدود تنسجم مع الغرض العام وتتفق مع النتائج المقدَّرة .

والشرط الأول للموظف الذى يحوز رضاء الرؤساء أن يكون فارغ القلب من الإيمان ، لا تشغله مصلحة قومية عليا ، ولا تُحركه عاطفة إسلامية ، ولا يبالى بشئ أبداً إلا بأداء واجبات الوظيفة كما رُسمت له .

ولا بأس بعد ذلك أن يكون فاسقاً سكيراً هاجراً للصلاة جريئاً على حدود الله ، فتلك أمور أقل ما توصف به أنها لا تهم المستعمرين .

حدَّثنى صديق أنَّ « وزارة المعارف » أرسلت أحد مفتشى اللغة العربية إلى مدرسة أجنبية لبحث حالتها ، وكان ذلك فى رمضان .

وحار الناظر - وكان يونانياً - كيف يُحيِّى المفتش القادم ؟

تُرى أصائم هو أم مفطر ؟

فقال - مختبراً - : أقول رمضان كريم ؟

وأجاب المفتش : ليس لرمضان عندى شئ !!

وهنا أمر الناظر اليونانى بإحضار القهوة للمفتش المسلم ! الذى يتجرعها -إن شاء الله -لهيباً يوم القيامة .

والغريب أن المفتش من « دار العلوم » .. ولكن أبناء « الجامع الأزهر » و« دار العلوم » إذا كفروا كانت لعنتهم نكراء زعراء ، لأنهم يحاولون أن يظهروا للناس وكأن الدين لم يعترض حياتهم يوماً ، أو أنهم لم يتأثروا به قَطْ .

أما العشرون سنة التى انقضت أمام عصا الفقيه فى الكُتّاب وأمام تراث الأقدمين فى المعاهد والكليات .. فهذه ذهبت سدى .

ولِمَ ذلك ؟ لضمان المستقبل الرخى والترقيات المتتابعة !

فإن يك هذا شأن من له بالتعليم الدينى صلة ، فكيف بخريجى التعليم المدنى الذين لا يعرفون من الإسلام إلا ما أعرفه أنا أو تعرفه أنت عن حياة سكان المريخ ؟

من هؤلاء الناس ، ومن أبناء الديانات الأخرى كوّن الاستعمار الجهاز الحكومى المشتمل على ألوف الموظفين ، وَوكّلَ إليه أن يحرس مستقبل أمتنا العزيزة !!

وحسبى أن أضع تحت النظر المتفرس صورتين لهذا اللّون من الموظفين إحداهما من بيروت ، والأخرى من القاهرة .

* * *

قال صاحب مذكرات بيروتى :

« كان ذلك الموظف يسكن حياً إسلامياً ، وكان بجواره مسجد يُذكر فيه اسم الله ، ويدعو فيه المؤذّن خمس مرات فى اليوم إلى الصلاة والعبادة والخير : « حى على الصلاة ، حى على الفلاح » .

ولكن هذه الدعوة النبيلة وهذا الكلام الجميل لم يعجبا ذلك الإنسان ، ولم يكن بوسعه نقل المسجد من جواره ، فارتحل عن الحى .

وسأله أحدهم : غريب أمرك يا فلان .. لقد كان آباؤك وأجدادك يطربون لهذا الأذان ، فما الداعى للنفور منه الآن ؟ !

قال : لهم رأيهم ، أما أنا فيزعجنى هذا الأذان . وقد تتهمنى بالتعصب ، وذلك رأيك ، ولكن هذه هى الحقيقة .

كان صاحبنا من كبار الموظفين فى الدولة ، وكان فى دائرته موظفون كثيرون من مختلفى الطوائف ، ولكنه كان يُطبِّق نظرية الوطن القومى بصرامة .

لم يكن يكره المسلمين فى « لبنان » فحسب ، بل فى كل بلد له بلبنان صلة .

هو يكره « السورى » لأنه مسلم ، ويكره « المصرى » لأنه مسلم ، ويكره « العراقى » لأنه مسلم .

ويُفضِّل أن يعيش فى عزلة منكمشاً على نفسه .

إنه مثال الموظف النموذجى الذى يُطبِّق سياسة « الغرفة السوداء » ، تراه ضَّيق الخيال محدود الذكاء ، يحفظ القوانين ، ولا يُحسن التصرف بها .

يُعقِّد المسائل أكثر مما يُسهِّلها ، ويخلق حولها جواً من الغموض والإبهام .

إنه حقود حسود ، لا يترك فرصة تمر من غير أن ينتقم من الذى يخالفونه فى الرأى ولو بعد سنين ، مستخدماً فى ذلك نفوذه ووظيفته .

شغل عدة مراكز إدارية ، ونُقِل إلى عدة دوائر ، وأثرى وأصبح من أرباب النِعَمْ بفضل عرق جبينه ، طبعاً !!!

ولم يسأله أحد فى يوم من الأيام : من أين لك هذا ؟

كان فى دائرته موظف من طائفته يحضر إلى مكتبه متى شاء ، ويتغيب متى شاء ، ولا حساب ، ولا عتاب .

وكان إلى جانبه موظف مسلم يرى ذلك بأم عينه ، فيسكت خشية الانتقام منه .

وحدث مرة أن طلب الموظف المسلم إجازة نظراً لضعفه ومرضه ، فرفض حضرته منحه يوماً واحداً ، وانتهره قائلاً : « إنَّ أشغال الدائرة تتراكم يوماً بعد يوم فكيف تتغيب ؟ ولمن تتركها .

- ولكن فلاناً يا سيدى يتغيب باستمرار ، إنه لا يحضر إلا فى المناسبات .

- عليك نفسك ، ولا تتدخل فيما لا يعنيك !

لقد كان صاحبنا يجمع المجد من أطرافه : فهو ابن أسرة معروفة .

وهو تلميذ معاهد الرهبان ، وربيب « الغرفة السوداء » يحضر اجتماعاتها ، ويطبق سياستها ، وينفذ خططها المرسومة بحكمة وخلاص .

أضف إلى هذه المزايا أنه صنيعة الفرنسيين ، فهم الذين خلقوه ، وفسحوا أمامه مجال الترقى والتقدم .

فكان يترقى بقدر ما يُظهر من تعصب ، يُثبت كفاءته فى هذا الميدان .

كم هم الموظفون النموذجيون الذين ورثهم عهد الاستقلال من أمثال هذا المخلوق ؟

* * *

لندع الشمال إلى الجنوب ، ولنفتش نحن أيضاً عن مواريثنا من الأشخاص الذين احتل الاستعمار عقولهم وقلوبهم ، فلما طردناه من أرضنا ، بقى فى نفوسهم لم يخرج .

... هو مهندس كبير - ويؤسفنى أن تجئ الأمثلة من هذه الطائفة مع أنَّ بها رجالاً يستحقون كل إجلال - تولى منصباً يستطيع فيه أن يأمر وينهى وأن يتعب ويريح ...

وكان يسكن فى « مصر الجديدة » على مقربة من ساحة فيحاء ، نهضت على جانبها البعيد كنيسة تنطح الآفاق بأبراجها الشم ، ويشهد طرازها البيزنطى الفاخر والمكان الذى شغلته بأنها تكلفت نحو مائتى ألف جنيه .

ولا أحب الاستماع إلى الاشاعات التى تقول : بأنَّ مهندسنا المحترم هذا له يد طولى فى التصريح بالبناء وإقامه .

ولكن الشئ الذى يجب أن نتابعه بعناية هو أنَّ مسلمى الحى كانوا يحتشدون للصلوات فى الجانب الآخر من الساحة العريضة .

ولقد وسعتهم هذه البقعة من أرض الله ، وأذكر أنى صليتُ معهم الظهر - ومعى زميلى الشيخ سيد سابق .

وأرسلتُ طرفى يمنة ويسرة ، فرأيتُ سوراً من القصب واللَّبن حول قطع مبعثرة من الحصر ، وفى جهة القبلة كرسى يمثل المنبر !

وطابع المكان كله يدل على العوز الشديد .

واقترب منى أحد الأهلين وقال : إنَّ جمعية « الإمام علىّ بن أبى طالب » سوف تبنى مسجداً بهذا المكان ، وهى تجمع الصدقات له .

وبعد فترة من الزمن جاءنى النبأ الغريب .

إنَّ المهندس الكبير - وكان رئيساً للبلدية - أمر بإزالة السور ومحو المسجد ومنع البناء .

وأرسل إلى رجال الشرطة يطلب إليهم التنفيذ .

ولكن منع الجمهور من أداء الصلاة والأذان لها فى بقعة ملائمة لهم أمر يستحيل تنفيذه !

وهَبْ أنَّ السور التافه قد زال بغتة .. إنَّ المؤمنين سوف يستحثهم ذلك إلى إعادته وحراسته .

وفى ليلة معيَّنة اجتمع ستة عشر بنَّاءً ، وتواصوا بينهم ألا يطلع الصبح حتى يكونوا قد رفعوا السور أربعة أمتار ، وحتى يكونوا قد أبرزوا بناء المسجد فى ذلك الميدان !

وجُنَّ جنون رئيس البلدية لهذه الجريمة النكراء ، كيف أمكن المسلمين بناء مسجد متواضع بهذه السرعة !

إنه - وهو الموظف الكبير - يجب أن يمنع هذا العدوان الغاشم .

والمضحك أنَّ هذا الرجل يحمل اسماً إسلامياً كتبه أبواه فى شهادة الميلاد .

شرع ذلكم الرئيس المسلم يتخذ الأهبة لهدم المسجد ، فطلب إلى رجال الشُرطة منع أى زيادة فى البناء .

ثم أرسل إلى وزارة الأوقاف مهندساً يحمل استفتاءً خلاصته :

هل يجوز اقتطاع جزء من الميدان لبناء مسجد عليه دون إذن ؟

وصياغة القضية فى هذا التساؤل الخبيث لها دلالتها .

الرجل يريد هدم بيت الله بفتوى من رجال الشرع !!

وتلقيتُ أنا السائل ، وكتبتُ الجواب الحق ، حمله باليد السيد المهندس الذى حضر إلى الوزارة لاستعجال الفتوى .

وأشهد أنَّ الرجل كان مُحَرج الصدر لتصرف رئيسه ، لكن ما عساه يفعل !

ولم تعجب الإجابة طالبها .

بَيْدَ أنَّ يقظة الشعور العام فى المنطقة أكرهت الرجل على التريث فى أمر الهدم ، فعلقَّه بإنجاز وزارة الأوقاف لمسجد تبنيه فى ناحية أخرى مجاورة .

فإذا أتمت الوزارة مسجدها هُدِمَ ذلك المسجد ..

وعَزَّ على الأهالى أن يكون الرجل جريئاً فى كفره إلى هذا الدرك .

ووصلت المسألة كلها إلى المسئولين الكبار فعالجوا الأمر بما ينبغى من حكمة .

وكان ذلك المهندس الحقود على الإسلام قد ترك خدمة الحكومة لأمر ما . فرأت البلدية أن تدع الجمهور يُكمل بناء المسجد ، وأبلغت الجمعية المشرفة عليه هذا الإذن ، وهى الآن بصدد إتمامه [1] .

* * *

(١) من قول الحق أنَّ نُصرِّح بأنَّ الشيخ « أحمد حسن الباقورى » وزير الأوقاف أبلى بلاء حسنا فى إعانة الأهلين على بناء مسجدهم .

صحافيون شرفاء

أظن عداوة الاستعمار للإسلام أصبحت لا تخفى على مَن له مسكة ، وأحسب أنَّ وسائله قد افتضحت فما يُخدع بها إلا غافل .

إنَّ مصلحته العاجلة والآجلة فض المسلمين عن دينهم ، وإرخاص قيمته فى أعينهم وتلقينهم الاستهانة بأوامره والجرأة على نواهيه ، والانصراف عن قضاياه ودس هذه السموم جميعاً فى تعاليم معسولة .

ظاهرها الاعتدال والحياد والنظر المجرَّد إلى الأشياء ، وباطنها فصم العلاقات النفسية بين المرء المسلم ودينه حتى يحيا وهو سليب الإرادة طائش الوعى . ينجذب إلى كل تيار ويجرى مع كل صيحة ..

والسفارة الأمريكية فى « مصر » وحدها أعدت فى قسم الاستعلامات قرابة مائة موظف ، لأغراض النشر والدعاية ، وتزيد الميزانية المرصدة لهذه الشئون على ميزانية جامعة الدول العربية .. !!

وأعلم - ويعلم غيرى - أنَّ الأرقام التى تدل على المصروفات الظاهرة شئ آخر قد يقل كثيراً عما يُصرف فى السر لضمان الأشياع والمحبين !

وقد نتساءل : ما علاقة هذا بعداوة الإسلام والكيد له . وتلك نفقات لها نظائر فى عشرات الدول الأخرى ؟! وهو سؤال يرد حتماً !

بَيْدَ أنَّ الذى يعرف أنَّ شركة قناة السويس - قبل تأميمها - كانت تُنفق بضعة ملايين من الجنيهات على أغراض النشر والدعاية ، وأنَّ من بين هذه الأغراض إعطاء الإرساليات التبشيرية والمدارس الأجنبية ، ولفيف من حملة الأقلام ورجال الفن . الذى يعرف هذا يدرك أنَّ الاستعمار لا يُضيِّع أمواله سُدى ، ولكنه يوظفها وفق سياسة خاصة ...

إنَّ صورة « الشيخ متلوف » التى كان يُراد بنشرها تحقير العالِم المسلم وإسقاط منزلته بين الناس كان صاحبها يتقاضى خمسين جنيهاً !

خمسين جنيهاً على الصورة الواحدة ! لِمَ هذا كله ؟

حتى تنفتح شهية الحيوان الرسام لمزيد من الفن فى تحقير رجال الإسلام ...

فإنَّ رجال الدين الإسلامى - إن صحت التسمية - يفعلون ما لا يفعله فى القديم ولا فى الحديث رجال النصرانية واليهودية وسائر الأديان .

فيجب أن توضع الجوائز المغرية لقتلهم هم وحدهم دون غيرهم من أى مِلّة أخرى !

إنَّ المرتزقين من أموال الاستعمار والذين يتطوعون من تلقاء أنفسهم للحط من هذا الدين تجمعهم - طوعاً أو كرهاً - غاية واحدة .

هى إقصاء الإسلام من الحياة العامة حتى يخلو الطريق للغزو الأجنبى فيعربد كيف يشاء .

مَن الذى كان يتصور أنَّ السيد « كميل شمعون » جاسوس إنجليزى وهو رئيس دولة يُشار إليه بالبنان ؟

إنَّ الاستعمار يتخيَّر الرجال الذين يعملون معه من شتَّى الطوائف ، ولكل واحد دور خاص يقوم به ، ومن جملة الأدوار الموزعة بعناية تمثيل الرواية القذرة ، التى يُضار بها الإسلام وأهله أشد الضير .

والمتتبع لما يُكتب فى الصحف ضد الإسلام يستغرب كيف جُنِّدت هذه الأقلام كلها لمناوشة هذا الدين وإسقاط رايته ... ؟

وسأفترض أنَّ هؤلاء الكُتَّاب شرفاء لا يعملون لحساب جهات أجنبية ، وأنَّ إهانتهم للإسلام نابعة من أفكارهم التى اقتنعوا بها ، وأنهم ليسوا ببغاوات تردد ما يُلقَى إليها ، إننى أفترض هذا .

لكن ما الرأى إذا كانت هذه الجهود المنظمة المترادفة تحقق برغم أنف أصحابها آمالاً صليبية معروفة ؟

فى برنامج « الشباب يريد أن يعرف .. » الذى قدمته الإذاعة المصرية حيناً من الدهر .

قال السيد « فكرى أباظة » : إنّ أعظم رجل فى التاريخ الحديث هو « مصطفى كمال » فى تركيا .

ولا أدرى لماذا يحترم رجل أبعد الإسلام عن الدولة ، ورسم سياسة جعل بها أمته ذيلاً للغرب ، وصديقاً لإسرائيل ، ومتسولاً يمد يده طلباً للعون ، وظهيراً ضد قضايا التحرر والشرف فى الشرق الأوسط ... ؟

ما الذى يجب أن يعيه الشباب من أستاذهم « فكرى أباظة » فى هذا المجال ، ولحساب مَن يُقال هذا الكلام ... ؟

وسُئل « فكرى أباظة » : لماذا لم يتزوج ؟

فشرع يعرض على آذان الشباب رموزاً للنساء التى عرفها وكان لها أثر فى حياته !

هذا الصحفى الماجن شاخ فى العبث .

وإذا كان الله لم يصن عِرضه بالزواج فلماذا يذكر عهره للشباب ؟

وما الذى يجب على الشباب أن يتعلمه من هذا المسلك الشائن ؟

والتقيتُ بمدير الإذاعة فى مكتب أحد الوزراء ، وقلت له : كيف تسمح لهذا الكلام أن يستمع إليه الناس ؟ ووعد الرجل خيراً ...

ثم أنصت للراديو بعد أيام فإذا هو يعيد الحديث المسجَّل ..

وقال لى صديق : كأن هذا تحد !! فأجبته : لا . لا .. !!

إنّ الرجل نسينى بعد ما خرج فما خطرتُ له على بال . !!

كيف تظن أنهم يأبهون لنصح عالِم مسلم ؟ .

إنّ التوجيهات الحديثة توصى بازدراء نصائح علماء الدين وتجاهل أشخاصهم ...

لقد ذكرتَ لى أنك منذ أيام نصحتَ غلاماً فى السينما أرسل ست نكت متتابعة عن المرأة وزوجها وعشيقها المختبئ تحت السرير .

غلام فى الخامسة عشرة من عمره فى مرحلة التعليم الإعدادى عنده هذه القُدرة ؟ إنه خرِّيج مدرسة أخبار اليوم ، إنك نصحته ثم أدبر عنك !!

ذاك لأنك تلبس بدلة إفرنجية ، ولو إنك تلبس العمامة لأمسك بخناقك وأعانه الآخرون على إخراجك من المكان .. إنّ سبعين سنة من الاحتلال البريطانى لمصر يجب أن تخلف كل هذه الرواسب الكدرة ..

دعنا من هذا الاستطراد ، ولنعد إلى السيد « فكرى أباظة » ...

إنّ حديث سُكْره وتسوله الجنسى ليس موضع تعليقنا .

ولكن الذى ألفت النظر إليه أنّ هذا الرجل صحا بغتة من مجونه لِيُعقِّب على مقترحات « مجلس الأمة » أيام انعقاده ، فإذا هو يغتاظ من مشروع قانون لتحريم الخمر ويغتاظ أكثر من مشروع قانون لفرض الزكاة ...

عجباً .. أموكل أنتَ يا رجل باعتراض كل عمل إسلامى ؟ أهذه هى الوطنية ؟.

إنّ الاستعمار لا تقر عينه بشئ كما تقر للكلام الذى تقول ..

الإسلام - يجب إبعاده عن الدولة ، الخمر حلال ، الزواج نافلة ، الزكاة لا تُفرض .. ومع ذلك فالسيد فكرى أباظة مسلم مشهور ..

لقد أثبتُ فى كتابى « الاستعمار أحقاد وأطماع » و « ظلام من الغرب » مقالات كثيرة ناطقة بنيّة السوء ضد الإسلام ونبيه وكتابه ، فلن أطيل السرد والاستشهاد هنا .

ولكنى أحب أن أومئ إيماءة خفيفة إلى قضية الأُسرة ورغبة الكُتّاب المعاصرين فى حلها على هواهم .

هناك نفر يُعلنون - بصراحة - أنَّ تنصير المجتمع فى العلاقات الشخصية قد آن أوانه ، ويجب منع تعدد الزوجات ، وتقييد الطلاق ، وإلغاء الأحكام الإسلامية فى هذا الشأن ...

ومع إلحاح هذا النفر وانتهازه كل فرصة للطعن فى تعاليم الإسلام والتحريض على نبذها فإنَّ الجبهة الإسلامية لا تزال ترد الضربات بقوة وصبر .

لكن المدافعين عن الإسلام فوجئوا بهجوم آخر .

فإنَّ الأستاذ« محمد زكى عبد القادر » - وكان الظن به حسناً - طلع علينا بمقال يغض فيه من نظام الأسرة ، بل ينقضه من دعائمه .

ويذكر أنَّ هناك آراء بأن يعيش الناس . هكذا .. وهى آراء لها وزنها .

ولا ندرى هل نضح على الرجل جو الكفر الذى تضطرب فيه صحافتنا أم هى زلّة يوشك أن يتوب منها ؟ نرجو .

وهاك كلمة الأستاذ - المتزن - ضد نظام الأسرة ... قال :

« إنَّ الأسرة فى مصر تتدهور كما هو حالها فى كثير من البلاد ، وإذا استمر هذا التدهور بمعدله الحالى . فليس يعرف أحد ما سيكون مصير الزواج . ولا مصير الجنس البَشرى كله .

ولا يزعم أحد أنَّ الزواج لا يمكن أن يُلغى لأنه سُنَّة من سُنَن الوجود ، أو حاجة ضرورية من حاجات الإنسانية .

فإنَّ التطور الخطير الذى يجتازه العالَم . ويكاد يزعزع الكثير من القيم التى نبتت آلاف السنين . لا يبعد أن يتناول الزواج أيضاً .

إنَّ الدين نفسه - وهوسند أساسى لنظام الزواج - يتعرض لحملات شديدة . وتأثيره الروحى فى النفوس يتضاءل شيئاً فشيئاً .

وفى كل مائة حالة زواج فى مصر يقع الطلاق فى ثلاثين حالة .

ولا يكاد يعتقد أحد أنَّ السبعين الباقية هى حالات سعيدة ..

فأغلب الظن أنها سيئة أيضاً وإن لم تبلغ حد الانفصال .

ويرى البعض أنَّ أسوأ ما فى الزواج أنه استمرار على حالة واحدة متكررة داعية إلى السأم والضيق ، فى عصر يبدو كل شئ أمام الإنسان فيه وكأنه يتطور ويتغير من يوم إلى يوم .

والزواج يستند إلى مفهوم دينى أكثر مما يستند إلى ضرورة طبيعية .

وقد وُجِد من الفلاسفة والمفكرين مَن اعتبروا الزواج حالة منحطة من حالات الإنسان .

وقال آخرون : إنَّ الإنسان يستطيع أن يعيش من غير زواج ، ولكنه لا يستطيع أن يعيش من غير طعام .

ودليلهم على ذلك أنَّ هناك أُلوفاً مؤلَّفة من النساء والرجال لا يتزوجون .

ومن الوسائل التى يلجأ إليها بعض المتزوجين فى « أوروبا » و « أمريكا » حتى يقطعوا رتابة الزواج وملله . أن يعطى الزوجان أحدهما الآخر إجازة تطول وتقصر حسب الظروف . حتى يتجدد الحنين إلى البيت والأولاد .

وكان مما يحفظ الزواج فيما مضى من الانهيار، أنَّ سُلطة الزوج كانت كاملة. وأنَّ الزوجة تعتمد عليه اعتماداً تاماً ..

أما اليوم - وقد استقلت الزوجة اقتصادياً فى كثير من الحالات ، وأخذت تطالب بحقوق متساوية مع الرجال - فإنَّ الأمر أصبح أكثر تعقيداً » .

إنَّ هذا الكلام يحمل فى طياته متفجرات تنسف نظام الأسرة وتأتى عليه من القواعد .

ونظام الأُسرة ليس فكرة إسلامية فقط ، بل رباط إنسانى عام ، اتفقت الديانات كلها على توثيقه وحياطته .

وليت شِعرى ما هو العوض الذى يقترحه الكاتب عن الزواج ؟

إنَّ اتصال الحياة على ظهر الأرض لا بد له من إحدى وسيلتين :

إما الوسيلة المشروعة المعروفة التى تُضبط بها العلاقات الجنسية ، وتُكفل بها حضانة الأولاد ، وتُقرر بها الأنساب والمواريث .

وإما ... الدعارة وتنقل الرجل بين مَن شاء من النساء ، وتنقل المرأة بين مَن شاءت من الرجال .

أو اشتراك عدة رجال فى امرأة كالحكاية التى روتها « أخبار اليوم » ودقت بين يديها الطبول .

أو ارتباط رجل بامرأة ارتباطاً اسمياً على أن يأخذ أى منهما إجازة من الآخر ليستريح منه أو يستريح مع غيره كما يروى هنا الأستاذ « محمد زكى عبد القادر » ..

أهذا كلام يُكتب ؟ أفكَّرَ كاتبه فى أنه سوف يلقى اللّه يوماً فيسأله عنه !

أقدر أن هناك ديناً اسمه الإسلام ينتمى إليه - ولو بالوراثة - وينتمى إليه أغلب قُرَّاء صحيفته !

أى خبط هذا الذى يقع فيه أولئك الكُتَّاب دون اكتراث لدين أو فضيلة !!

وخير ما نرد به على ذلك الكلام أن يقارن القارئ بينه وبين ما نشرته مجلة « الإذاعة » تحت عنوان:الدنيا بين يديك . وهذا نصه :

« من الظواهر العجيبة فى الولايات المتحدة الأمريكية أنَّ السلطات قبضت خلال العام الماضى على أكثر من نصف مليون شاب وشابة بسبب خروجهم على القانون.

وأنَّ هذا العدد الضخم ضم شباناً ينتسبون إلى جميع الجاليات الأجنبية ، التى استقرت منذ زمن بعيد فى أمريكا إلا جالية واحدة لم يُقبض على فرد واحد منها .. وهى الجالية الصينية .

وقد صرَّح أحد العلماء الأمريكيين بأنَّ هذه الظاهرة ترجع إلى أسباب كثيرة ، على رأسها أنَّ الجالية الصينية لا تزال تحافظ على التقاليد الشرقية القديمة التى تُقدس الأسرة وتربط بين أفرادها برباط متين .

كما أنَّ المادية التى سيطرت على حياة الأمريكيين ، لم تستطع أن تنال من تدين أفراد الجالية الصينية ، أو من الاهتمام المتصل بقراءة كل ما تقع عليه أعينهم من الإنتاج الأدبى الرفيع » .

وختم العالم الأمريكى تصريحه قائلاً :

« إنَّ نجاة شباب الجالية الصينية من الانحراف الذى أصاب الشباب الأمريكى دليل على أنَّ روحانية الشرق لها من الجذور القوية المتأصلة فى نفوس المؤمنين بها ما يُمَكِّنهم على الدوام من أن يثبتوا أمام عواصف الانحلال التى تجتاح الملايين من حولهم » .

* * *

ومن بين رجال الصحافة أفَّاك يُعَد من أنشط جنود إبليس هو الخواجة « سلامة موسى » الذى ذهب إلى الله من أيام - تُرى هل يؤمن بعد أن لقيه !

لطالما جحد وجوده فى الدنيا وجبه المؤمنين وهم يعملون له ويوقرون وصاياه . !

هذا الصحافى كان يمزج فى سلوكه بين سياستين لا تناقض بينهما فى نظرى ، لأنهما ينبعان من طبيعة واحدة ويسيران فى مجرى واحد ..

أولاهما : أن يظهر بين الناس - أعنى المسلمين خاصة - بأنه رجل علمانى بحت فهو ينقل أفكار « ماركس » و « دارون » و « فرويد » ، ويصدر فى جميع ما ينشره بيننا عن فلسفة مادية مجردة لا تعرف إلا النشوء والارتقاء، ولا تصدِّق إلا بما يقع فى نطاق هذا الكون المعروف ، ولا تفسِّر تاريخ الماضى والحاضر والمستقبل إلا بمنطق المعدة والسعادة العاجلة ، واللَّذة للجميع ، وإقرار السلام كما يقولون .

أما أخراهما : فهو يقبع بين المواطنين الأقباط يستثير نفوسهم ويستفز ساكنهم ويحرضهم على فعل المنكر .

ولو أحصينا ما كتبه فى جريدة « مصر » الطائفية المعروفة ضد الإسلام وضد المسلمين المصريين لخرجنا بسجل من أقذر ما عرف فى الصحافة المصرية منذ أنشئت !!

والواقع أنَّ الرجل كان مسلَّطاً على هدم الإسلام بكلتا الطريقتين .

إشاعة الإلحاد بين أتباعه ، وإهاجة الأقباط عليهم إن هم تمسكوا بدينهم !!

والمضحك أنَّ من النعوت التى شُيِّعَ بها الرجل بعد موته أنه « أستاذ الجيل»! وتبارت صحفنا فى الكلام عن إيمان الرجل وعظمته .

حتى خُيِّل للعيان التى تطالع الصحف أنَّ كوكباً هوى لا أنَّ فتنة انطفأت .

وأصدق ما وُصِفَ به « سلامة موسى » هذه الكلمة التى جرت على لسان الأستاذ الكبير « عباس محمود العقاد » :

« إنَّ الأدباء لا يحاسبونه لأنهم يزعمونه من العلماء ، والعلماء لا يحاسبونه لأنهم يظنونه من الأدباء ، وهو فى الواقع لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » ..

نعم .. هو ليس من العلماء ولا من الأدباء .

إنه رجل كرَّس حياته لمحاربة الدين - أعنى الإسلام وحده - لحساب الاستعمار والأديان الأخرى .

وانظر ما كتبه عنه السيد « فتحى غانم » فى مجلة « روز اليوسف » فى معرض الحديث عن كتابه « مقدمة السوبرمان » :

...يتكلم عن إيمانه بالتطور فتظن أنه شيوعى !

ثم يدافع عن السرقة والخطيئة وفلسفة القوة فتظنه فاشيستياً .

ومع ذلك فما قيمة هذا التناقض !

المهم أنه ينقل إلينا العلم !!

وفى حماسة للعلم يندفع « سلامة موسى » بحرارة الشباب كلها ويقول مع الفيلسوف الألمانى نيتشة : « إنَّ اللّه قد مات »...ثم ماذا ياسيد فتحى غانم؟!

يقول : كان التعب قد نال من « سلامة موسى » ..لقد قطع رحلة طويلة من التفكير والدراسة والدعوة إلى العلم ! إنه يريد أن يستريح .

ولجأ « سلامة موسى »إلى الدين يقول :

عدت إليها - إلى الكنيسة - فى حنان ، فليس من شك فى أنَّ المتدين يحس سلاماً ويجد ابتهاجاً يُحرم منهما غير المتدين .

عجباً .. ومتى تركتها يارجل حتى يُقال : إنكَ رجعتَ إليها ؟ .

إن عاطفتك المشبوبة وغضبك الهائل وأنت تهاجم الإسلام فى جريدة «مصر» الطائفية لا نظير لهما فيما كتبت من قبل ومن بعد !!

نحن نعلم أنَّ الموت بداية الحياة الحقة وختام فترة الاختبار على ظهر هذه الأرض ، وإنما نهز رأسنا عجباً لمهازل كثيرة من الصحفيين فى هذه البلاد

* * *

ولو أنَّ الصحافة تشعر بأدنى تهيب للإسلام وإجلال لرسالته لخففت من تعرضها له ، ونيلها منه .

لكن المؤسف أنَّ أغلب رجال الصحافة عليل اليقين ، زائغ القلب ، يسيل ريقه لمن يبذل المال أو يوجل فؤاده لمن يملك السوط .

فهو عبد رغب يُذله ، أو رهب يُضله .

وكأنما تواطأ حملة الأقلام على الفتك بأُصول الاعتقاد ، وفك عُرا الإسلام ، وتجاهل حُرمة النصوص ، وتهديم كل ما شاد الأوائل طوال أربعة عشر قرناً .

ولا ريب أنَّ هناك أقلاماً مؤمنة تستطيع أن تخرس ألسنة الإلحاد ، وأن تنزل معها فى صراع حر لا ترى بعده إلا أن تفر وتخزى .. لكن الحرب غير متكافئة .

فالكتاب المؤمن تتضافر دون انتشاره قوى كثيرة .

والصحيفة المؤمنة لا تملك من وسائل الإجادة والذيوع شيئاً .

ومن ثَمَّ فهى تناوش عناصر الشر بجهد المُقِل .

وجهد المُقِل فى ذلك المجال لا يُغنى فتيلاً .

وصور قليلة من كفاح هذه الصحف تشعرك بأن المعركة على الإسلام نفسه ، وعلى كل ما ينطوى عليه هذا الإسلام من فضائل وتعاليم .

منذ عام دأبت إحدى الصحف الدخيلة الكبرى ، على نشر قصص مبتذلة تقوم على الترويج للخيانة الزوجية .. والدفاع عنها .

وكأنها تهدف من وراء ذلك إلى إفساد المجتمع المصرى ، وبذر بذور التحلل والإباحية بين الأُسر . !

ولسنا ندرى لحساب مَن تعمل هذه الصحيفة الكبرى ؟

ولكن الذى ندريه هو أنَّ كُتَّاب هذه القصص جميعهم من اليهود والأجانب .

وبقى أن يفهم القُرَّاء المغزى الحقيقى من نشرها .

هذه قصة خصصت لها الجريدة نهرين كبيرين فى صفحتها الحادية عشرة .

تتلخص فى أنَّ زوجة ضاقت ذرعاً بغيرة زوجها عليها فأرادت أن تنتقم منه .

فقالت لأول رجل صادفها فى الطريق - بعد مغازلة سريعة : « خذنى إلى أى مكان تريد .. ألا تفهم » ؟

وتروى الجريدة باقى القصة فتقول : « ... ولم يجد « فلان » صعوبة فى الذهاب بها إلى بيته .

وفى الساعة السابعة مساء خرجت السيدة المذكورة وقد تناثر شعرها ، واحمر وجهها ، واضطربت زينتها ، ولكنها تشعر بهدوء فى النفس ، وراحة فى البال ، لقد انتقمت من زوجها » !!

وهذه قصة أخري نشرتها الجريدة المحترمة فى ٢٦ أكتوبر الجارى .

وتتلخص فى أنَّ الزوج دعا صديقاً له لقضاء عطلة الأسبوع فى بيته الريفى ..

وفى أثناء نزهتهما - مع الزوجة - فى قارب سقط الصديق فى الماء وابتلت ملابسه ، وعاد الجميع إلي المنزل حيث قدَّم له الزوج « الروب دى شمبر » الخاص به ، وأقبلت الزوجة تحمل الدِفء الدافئ إلى صديق زوجها ..

فإذا هى - وقد وقع نظرها عليه فى لباسه - تقف جامدة فى مكانها !

وتروى الجريدة باقى القصة فتقول بالحرف الواحد :

« لم تكن « الزوجة » قبل ذلك ألقت بالاً إلى ذلك الصديق .

ولكنها لاحظت فجأة وجهه الوسيم ، وشفتيه الحمراوين ، ومظهره الذى يُذكِّر الناظر بنجوم السينما .

فقدمت إليه الحسناء الدِفء الدافئ وهى تقول له فى رفق وعذوبة : اشرب يا صديقى !

وتلامست أصابعهما لحظة ، ومرت بجسد الزوجة رعدة ، وتعلقت عيناها بعين الصديق ، وراعها سحرهما وعمقهما ، فقالت له بعينيها كلاماً ما كان يرضى مسيو ريكيه « الزوج » أن يسمعه » !

ولا داعى لذكر النتيجة التى انتهت هذه القصة القذرة إليها .

ففى استطاعة القارئ الكريم أن يستنبطها .

إننا نُحذِّر هذه الجريدة الدخيلة ، فنحن لها بالمرصاد .

ونُلفت النظر إلى هذه السموم التى تعمل على بثها فى وقت تَجِدُّ فيه الأُمة للدفاع عن ذمارها وتجنيد شبابها .

بل فى الوقت الذى تنشر فيه الجريدة المذكورة صور الاحتفال بالشهداء الذين سقطوا فى معركة « الصبحة » صرعى برصاص اليهود .

وهذه صورة من مجلة « المسلم » :

« نشرت جريدة الأهرام أنَّ الاتحاد النسائى يجتمع للبحث فى المطالبة بتوريث البنت ميراث الابن ... إلخ.

ولم يكن ذلك مستبَعداً عند مَن يعرف طريق التهور والاندفاع الذى تسلكه التجمعات النسائية فى مصر ، بإغراء وتأييد من طوائف المنحلّين واللادينيين - وكثيرٌ ما هم .

وقد أصبح بأيديهم من الجاه والسلطان والإمكانيات والوسائل والأموال الإنجلو أمريكية وغيرها ، ما يحملهم كُرهاً على التبجح والالتواء على القدس الأعلى .

وقد كنا ننتظر ذلك بعد أن فتحنا الباب على مصاريعه لناقصات العقل والدين من الكاسيات العاريات ، التالفات المتلفات ، حتى لم يبق ظل لفضيلة ، ولا أثر لإنسانية ، لم يرخصها الرجس أو يعابثها النجس .

فأصبح التعرى تأدباً ، والمخادنة تسامياً ، والمعابثة مجاملة ، والتعفف رذيلة ، والتصون خرافة ، ومجرد الإشارة إلى الدين جريمة اجتماعية تقعد من أجلها الدنيا وتقوم .

لقد تأوّل المنحلون ما تشابه من الكتاب والسُنَّة ، فلم يبق إلا العدوان الإجرامى على المحكم الصريح الذى لا يقبل تأويلاً ولا تحويلاً ، فى التوريث الذى يؤكد أن : ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ ﴾ (١) .

ولقد وجد النسوان من أشباه أهل العلم مَن أعانهن على بعض الإثم .

وإني لا أستبعد أبداً أن يتبرع متوقح رقيع من أشباه أهل العلم ، بالوقوف فى جانب هذه الجريمة المستحدثة ، طلباً للشهرة أو المال » .

ذلك .. وكتب الدكتور « محمد البهى » يكشف عن جانب آخر من رسالة الصحافة الصفراء :

« عمل الإنجليز إذن - وهم أصحاب التوجيه للسياسة التعليمية فى « مصر » عن طريق القس المبشر « دانلوب » - على تقوية التعليم المدنى اللادينى ، وعلى أن يكون ذا سيادة على تعليم الأزهر .

---

(١) النساء : ١١

ثم استعانوا بعد ذلك بالصحافة الدخيلة فى « مصر » على أن تقاوم ما سموه بالرجيعة والتعصب .

والذى سمى بالرجعية والتعصب إذ ذاك هو الأزهر .

والذى سماه هم الإنجليز أنفسهم .

وتبنت مجلة « الهلال » الدعوة ضد الرجعية والتعصب نيابة عن الاستعمار الإنجليزى .

ومن يقرأ فى بعض أعدادها يدرك جيداً هذه الغاية .

فمثلاً نقرأ فى عدد نوفمبر سنة ١٩٢٤ ما يلى :

« الحضارات الشرقية تُقدِّس الشريعة على أنها إرادة واحد قهَّار ، لا على أنها عدل ، ولا على أنها لا تتغير إلا بمشيئة السيد .

وما مشيئته إلا حاجة فى نفسه إن كان أرضياً ، أو أحجية لا تُفسَّر إن كان سماوياً » .

كما نقرأ فى عدد يونية سنة ١٩٣١ ، تحت عنوان « العلم والإيمان وديانات الإنسانية » ما يلى :

« إنَّ هذه الديانة الجديدة قد انتشرت فى أمريكا ، وإنَّ أصحابها يقولون : إنَّ مسألة وجود اللّه أو عدم وجوده ليست من المسائل الجوهرية ، لأنه إذا عمل الإنسان ما هو صالح فى هذا العالم فقد فعل ما هو مطلوب منه .

سواء أكانت له روح خالدة أم لم تكن ..

وإنَّ أصحاب هذه الديانة يقولون أيضاً : لو كان جميع الناس يعتقدون كما اعتقدنا أن هذا العالم هو الفردوس الوحيد الذى ليس بعده فردوس آخر ، لوجهوا كل قواهم إلى تحسينه ، ليصبح فردوساً حقيقياً بكل معنى الكلمة .

أما وهم يؤمنون بوجود فردوس آخر أفضل ، وأنَّ الإنسان نزيل فان على هذه الأرض ، فهم يحرضون كل واحد على احتقار الحياة ، وعلى تصويرها بأشنع صورها حتى تصبح جحيماً لا يُطاق »

وهذا الذى تدعو إليه مجلة الهلال هو ما يُعرف بواقعية « أوجست كومت » الفيلسوف الفرنسى فى القرن التاسع عشر .

و « أوجست كومت » وضع فلسفته الواقعية لمحاربة الكنيسة الكاثوليكية فى تصويرها للحياة الدنيا والآخرة .

وأصبحت هذه الواقعية بهذا الأسلوب تُقال هناك فى مقابل المسيحية الكاثوليكية ولكنها - بعد أن انتقلت إلى الشرق - أصبحت تُقال فى مقابل الدين السائد فيه ، وهو « الإسلام »

وأصبحت الواقعية تساوى : لا إسلام ، والإسلام يساوى لا واقعية .

وصاحب كتاب « على هامش السيرة » يقول فى مقدمة هذا الكتاب :

« وأنا أعلم أنَّ قوماً سيضيقون بهذا الكتاب لأنهم محدَثون يُكبرون العقل ولا يثقون إلا به ، ولا يطمئنون إلا إليه .

وهم لذلك يضيقون بكثير من الأخبار والأحاديث التى لا يُسيغها العقل ولا يرضاها .

وهم يشكون ويلحون فى الشكوى حين يرون كلف الشعب بهذه الأخبار ، وجَدُه فى طلبها ، وحرصه على قراءتها والاستماع لها .

وهم يجاهدون فى صرف الشعب عن هذه الأخبار والأحاديث واستنقاذه من سلطانها الخطر المفسد للعقول .

وهؤلاء سيضيقون بهذا الكتاب بعض الشئ لأنهم سيقرأون فيه طائفة من هذه الأخبار والأحاديث التي نصبوا أنفسهم لحربها ومحوها من نفوس الناس .

وأحب أن يعلم هؤلاء : أنَّ العقل ليس كل شئ ، وأنَّ للناس مَلَكات أخرى ليست أقل حاجة إلى الغذاء والرضا من العقل .

وأن هذه الأخبار والأحاديث إذا هى لم يطمئن إليها العقل ، ولم يرضها المنطق ، ولم تستقم لها أساليب التفكير العلمى ، فإنَّ فى قلوب الناس وشعورهم وعواطفهم وخيالهم وميلهم إلى السذاجة واستراحتهم إليها من جهة الحياة وعنائها - ما يُحبِّب إليهم هذه الأخبار ويُرغِّبهم فيها ويدفعهم إلي أن يلتمسوا عندها الترفيه عن النفس ، حين تشق عليهم الحياة .

وفرق عظيم بين مَن يتحدث بهذه الأخبار إلى العقل - على أنها حقائق يقرها العلم ، وتستقيم لها مناهج البحث - ومَن يقدمها إلى القلب والشعور على أنها مثيرة لعواطف الخير ، صارفة عن بواعث الشر ، معينة على إنفاق الوقت ، واحتمال أثقال الحياة وتكاليف العيش » .

وإذن أخبار السيرة النبوية وأحاديثها - فى نظره - لا تستقيم لها مناهج وليست حقائق يُقرها العلم ، أى لا تتصل بالواقعية .

هى مثيرة فحسب لعواطف الخير ، صارفة عن بواعث الشر ، مُعينة على إنفاق الوقت واحتمال أثقال الحياة وتكاليف العيش .

والدين - وهو مصدر إثارة العواطف الخيِّرة ، والإبعاد عن بواعث الشر - ليس حقائق يقرها العلم ، وتستقيم لها مناهج البحث ، أى ليس واقعياً !!

وكتاب « على هامش السيرة » - كما يُصوِّر أخبار وأحاديث صاحب الدعوة الإسلامية عليه الصلاة والسلام - يُصوِّر مبادئ الإسلام نفسه .

هناك إذن اتجاه العقلاء واتجاه الواقعيين فى البحث .

وكِلاهما لا يعترف بالدين ، كمصدر للمعرفة والعلم .

* * *

والمسلاة التى يلجأ إليها الصحافيون فى الأيام الأخيرة والتى تشبه أعراض المرض المزمن هى « تعدد الزوجات وإباحة الطلاق » .

ويظهر أنَّ « السادة » الذين يحركونهم من وراء ستار يرون أنَّ قوانين الأحوال الشخصية فى مصر هى آخر ما بقى من التراث الشريعى للإسلام .

ولذلك يجتهدون فى الإتيان عليه حتى ينفضوا أيديهم فى ارتياح من آخر حياة قانونية للإسلام .

وإنارة للأذهان اضطررتُ للكتابة فى هذا الموضوع مرة أخرى بمجلة « منبر الإسلام » دحضاً للشُبهات التى يفتأ يثيرها أولئك الكاتبون .

* * *

حول إصلاح قوانين الأحوال الشخصية

عادت إلي الظهور مرة أخرى مقترحات ترمى إلى ما يأتى :

١ - « تقييد تعدد الزوجات » .

٢ - « تقييد الطلاق » .

٣ - « إلغاء بيت الطاعة » .

ونحن نناقش - فى هدوء - هذه المقترحات لنزن مدى الأضرار والمنافع التى تترتب عليها ، ولنر هل يتفق مع المصلحة أو مع الدين تحقيقها ؟؟ .

ولا بد - قبل تناول الموضوع نفسه - من إلقاء نظرة عَجْلى على قانون العقوبات الذى تُحكم به البلاد .

والباب الرابع من هذا القانون يتعلق بجرائم هتك العِرض وإفساد الأخلاق .

والمتأمل فى مواده ابتداءً من (٢٦٧) إلى (٢٧٩) يخرج بنتيجة واحدة هى :

« أنَّ الزنا لا يُعَد جريمة ما دام الطرفان قد أديا العملية الجنسية برضا متبادل وحرية تامة » .

« وأنَّ العقاب بالأشغال الشاقة أو الحبس إنما يوقع على الشخص فى أحوال الإكراه ، أو عند وجود ظرف يخدش تمام الرضا وكمال الحرية » .

والمادة ٨٢٦ تنص فقرتها الأولى على ذلك .

« مَن واقَعَ أنثى بغير رضائها يُعاقَب بالأشغال الشاقة المؤبدة أو المؤقتة » .

وكذلك الفقرة الأولى من المادة ٢٦٨ فهى تنص على أنَّ :

« كل مَن هتك عِرض إنسان بالقوة أو بالتهديد أو شرع فى ذلك يُعاقَب بالأشغال الشاقة من ثلاث إلى سبع .. »

فالجريمة ليست فى العمل ، ولكن فى القسر عليه واغتصابه دون الرضا الكامل من الطرف الآخر .

فإذا وُجِدَ الرضا فلا جريمة هنالك ولا عقاب ..

ولما كان ركن الرضا مع توفر الإرادة والتمييز لا يوجد فى الأشخاص الذين لم يبلغوا سن الرشد ، فإنَّ القانون يعاقب على الزنا بأولئك الصغار ، لأنَّ رضاهم قد يكون قائماً على الخداع والتغرير ..

ولذلك جاء فى المادة ٢٦٩ : « كل من هتك عرض صبى أو صبية لم يبلغ سن كل منهما ثمانى عشرة سنة كاملة بغير قوة أو تهديد يُعاقب بالحبس .. » إلخ .

فإذا انتفت معانى الخداع والضغط . وتبين أنَّ كلاً من الرجل والمرأة كامل الأهلية فإن القانون لا يرى وقوع الزنا منهما جُرماً يرصد له عقاباً .

وجاء فى المادة ٢٧٣ أنَّ الزوجة إذا زنت ولم يحس الزوج غضاضة من عمل زوجته أو آثر السكوت على فعلتها ، فإن القانون ليس له قبلها أى حق .

واليكَ نص المادة المذكورة :

« لا يجوز محاكمة الزانية إلا بناء على دعوى زوجها ...إلا أنه إذا زنى الزوج فى المسكن المقيم فيه مع زوجته كالمبيَّن فى المادة ٢٧٧ لا تُسمع دعواه عليها ».

وتنص المادة٢٧٤ على أنَّ المرأة المتزوجة التى ثبت زناها يحكم عليها بالحبس مدة لا تزيد على ثلاث سنين .

ولكن لزوجها أن يوقف تنفيذ هذا الحكم برضائه معاشرته لها كما كانت ..

وأخيراً جاء فى المادة ٨ من القانون رقم ٦٨ لسنة ١٩٥١ لمكافحة الدعارة :

« يُعتبر محلاً للدعارة أو الفجور كل مكان يُستعمل عادة لممارسة دعارة الغير أو فجوره ... »

أما الذى يُستعمل لممارسة الدعارة الشخصية أو فجورالإنسان نفسه بمن يشاء .. فذلك ليس محلاً للدعارة .

ومن جملة هذه المواد يُعرف أنَّ الاتصال الجنسى مباح أصلاً بحكم القانون . وأنَّ العقوبة تعرض له إذا كان عن إكراه أو مخادعة أو ما أشبه .

وفى ظل هذا الوضع يُراد تحريم العقد الشرعى على زوجة ثانية . أى يُراد الاتصال بها دون عقد وفى رضا من قانون العقوبات القائم .

ذلك القانون الذى لم تغضب من بقائه إلى اليوم جمعية نسائية ، ولم نسمع لها صوتاً ينادى بإلغائه .

على حين نسمع صيحات رتيبة متكررة مصرة على تعديل قانون « الأحوال الشخصية » وجعل الزواج بامرأة أخرى جريمة يُعاقِب القانون لاقترافها .

أى أنَّ المراد تحريم الحلال ، وتحليل الحرام .

وقد تتسائل : هل تعدد الزوجات علّة فاشية فى المجتمع المصرى سببّت له أضراراً ونكبات شتّى مما يوجب تدخل القانون لوقاية الأمة وحمايتها ؟

والجواب يؤخذ من الإحصاءات التى تنطق بأنَّ المصريين لا يُعدِّدون إلا فى نسبة لا تتجاوز ٣٪ أو ٤٪ .

فهل هذه النسبة الضئيلة التى لا تكاد تُحَس هى مبعث الصراخ المتكرر من خطورة التعدد . ووجوب سن تشريع بمنعه .. ؟

إنَّ هذا الصياح مفتعل ، ويزيدنا اتهاماً لبواعثه أنَّ فى مصر أزمة زواج لا أزمة تعدد .

وأنَّ آلاف البيوت مغلقة الآن على فتيات ينتظرن الأزواج بصبر وأمل ، بل بنفاد صبر وضعف أمل .

والواقع أنَّ الأحوال الاقتصادية السائدة ، وارتفاع المستوى المنشود للمعيشة - جعل الزواج بامرأة واحدة أمراً صعباً .

وجمهور الموظفين من حملة الشهادات العليا حين يُوضَعون فى الدرجة السادسة يشعرون بصعوبة الحياة ويتوجسون من عواقب الزواج بواحدة فحسب .

فأين مجال التفكير فى الجمع بين اثنتين ؟؟

فإن تك هذه حال الطبقة الوسطى . فكيف بغيرها ؟

قد يقال : إنَّ هناك من أبناء الطبقات الدنيا مَن يعددون دون وعى !!

ونحن نرحب بمنع العاجز من الزواج بواحدة حتى يستطيع أن يقوم بواجبه كرجل فى الإنفاق عليها وتربية أولاده منها .

وذلك تنفيذاً لقوله تعالى : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ (١) .

بَيْدَ أنَّ منع الفقير من التزوج بواحدة لا يجوز أن يصدر به قانون شرعى إذا كان هناك قانون آخر يبيح له أن يجمع فى بيته واحدة واثنتين دون عقد ، لأنَّ الزنا مع التراضى يقره القانون ، أو لا يتدخل لمنعه !! ..

إنَّ الكلام عن منع التعدد يشبه أن يكون كلاماً عن مجتمع فى المريخ .

أما المجتمع المصرى القائم فهو لا يعرف شيئاً عن هذا اللغط الذى يهرف به البعض تقليداً لأوروبا التى غرقت فى الإثم . وأباحت التعدد الحرام . ومنعت التعدد الحلال !!!!

ومن المتناقضات التى تدعو إلى العجب الدعوة إلى إلغاء « بيت الطاعة » فى الوقت الذى يُدعى فيه إلى تقييد الطلاق !

إنَّ « بيت الطاعة » هو بيت الزوجية .

ومعنى إبعاد الطلاق عنه أن تتضاعف المحافظة عليه . وأن تزيد أسباب صيانته وبقائه . لا أن يُطالَب بإلغائه !!

لكن يبدو أنَّ تصور الحقائق غير متماسك فى أذهان هؤلاء المنادين بإصلاح الأسرة ...

---

(١) النور : ٣٣

فالرجل - فى نظرهم - لا يملك أن يحل عُقدة النكاح ، ويجب أن يُمنع من ذلك قانوناً .

وفى الوقت نفسه تملك المرأة أن تترك « بيت الطاعة » لأن إبقاءها فيه بالرغم منها إهانة ومذلة !! .

فلينهدم إذن البيت أو ليبق خاوياً تُصفِّر فيه الريح .

إنَّ الإسلام أقام « بيت الطاعة » بدلاً من بيت المعصية .

وجعل للرجل والمرأة فيه حقوقاً ظاهرة .

وإذا حدث شِقاق بين الزوجين استحالت معه العِشرة ، فلكل من الطرفين أن يحمى نفسه من الضرر اللاحق به .

للمرأة حق الخلع . وللرجل حق الطلاق .

والخلع بالنسبة إلى المرأة أن تعرض على زوجها رد ما دفعه إليها نظير إطلاق سراحها وفسخ عقد الزواج .

وأساسه ما رُوِىَ عن النبى ﷺ : أنَّ امرأة رفاعة جاءت إليه تشكو أنها لا تطيق المعيشة مع زوجها وقالت : لا أعتب عليه فى خلق . ولا دين . ولكنى أكره الكفر فى الإسلام .

أى أنها تبغض البقاء معه ، وإن كان لا مطعن عليه فى خُلُقه ولا دينه .

وتخشى أن تؤدى هذه الكراهية الجارفة بها إلى ما لا يليق .

فقال لها الرسول ﷺ : « أتردين عليه حديقته » ؟ - وهى المهر الذى دفعه إليها .

قالت : أردها وأزيد ، ففرَّق الرسول ﷺ بينهما .

والمرأة التى تريد الخلع ويأباه عليها زوجها . ترفع شكواها إلى القضاء .

وهو - بعد تقديره لظروف الزوجين - يحكم بما يراه أقرب إلى العدالة ، وإلى مصلحة الطرفين .

فليس الإسلام بالدين الذى يقوم على إذلال المرأة .

ولا هو - كذلك - بالدين الذى يقوم على إذلال الرجل .

ولا ندرى سر الحملة على « بيت الطاعة » بعد ذلك إلا أن تكون حملات مبعثها الجهل بالفقه الإسلامى ، والتقليد الأعمى للفكر الأجنبى .

والطلاق حق الرجل ، وإكراهه على ترك هذا الحق لغيره ، معناه إرغامه على هجر البيت مع بقاء عقد الزوجية قائماً .

ومعناه أيضاً أن ينطلق كلاً الزوجين فى ظل هذا العقد الصورى المفروض كرهاً ليفعل ما يحلو له ... وهذا فساد عريض .

إنَّ « أوروبا » لم تقف البتة عند القول بتقييد الطلاق ، بل أباحته فى نطاق واسع ولأتفه الأسباب .

ونحن لا نرحب بشيوع الطلاق فى الأسر « فهو أبغض الحلال إلى اللّه » .

ولكن المحافظة على كيان الأسرة تتم برفع المستوى الدينى والخُلُقى .

وبتفهيم الجماهير أنَّ أكثر ما يشيع بينهم من ألفاظ الطلاق لغو لا يؤخذ به ولا تنحل به عقدة النكاح ...

أما محاولة إقحام القانون فى ربط المرأة برجل يكرهها ويرفض العيش معها فهو مصدر فساد عريض ...

ويسرنا أن ننقل رأى الدين ، فى قضايا التعدد والتقييد مصوراً فى شعر حسن للأستاذ محمد مصطفى حمام .

تـزوَّجـوا . وانظمـوا أوطاننـا أسرا ... لا تتـركـوا وطن الأمجـاد منتشرا

لا تجعلـوا البيت والتـزويج مشكلة ... ويَسِّروا مـن أمـور العيش ما عسرا

لا تخشوا الفقر ، كم من أسرة شبعت ... عِـزاً ومـالاً ، وفـرد خاب وافتقرا

ولا تخـافـوا شقاقاً فـى بيـوتكمو ... بـل اضمروا الحب يبق الحب منتصرا

فـإن تعـاظمكـم خلف وأعضلكـم ... فخـالِفـوا آمـر التفـريق إن أمرا

واستخلصوا حَكَماً من أهلكم وخذوا ... من أهلها حَكَماً واسترحموا القدرا
ولستُ أرضى سوى الأهلين محكمة ... وليبق سِرِّى وسر البيت مُدَخرا
فإن قضى اللّه تفريقاً فنازلة ... إن تلق صبراً فطوبى للذى صبرا
وربما كان فى التفريق منفعة ... قد يبرأ الجسم من عضو إذا بُتِرا
حياتنا صفات تلك واحدة ... منها فذا رابح فيها وذا خَسِرا

* * *

ومَن يُعدِّد زواجاً دون ملجئة ... فقد أتى بضرار أو أتى ضررا
ليس التعدد إلا رُخصة فإذا ... أسرفتَ فيها ركبتَ الحمق والخطرا
مَن ينتقص حق أولاد لثانية ... لم يلق من ربه عفواً إذا اعتذرا
وفى التعدد إن أدركتَ حكمته ... يُسرٌ رخى وجبرٌ للذى كُسِرا
مَن للمطلّقة الحسناء يعصمها ! ... وللعوانس تفنى عمرها ضجرا !!
وللأرامل ، والأحزان تعصرها ... والحزن يفتك بالأعواد إن عصرا
ومَن لأُم اليتامى ، هل تقوتهمو ... بالخد معتصراً والقد مهتصرا !!
وما الغطاء لمن زلّت وساورها ... من الفضيحة طيف يرسل النذرا
وما السبيل إلى ذُرِّية نُجُب ... إن كنت زوج عقيم حظها عثرا !
هو التعدد يهدى الغارقين إلى ... بَرِّ الأمان ويبنى بيننا أُسرا
هو التعدد كم آوى اليتيم وأشـ ... ـباه اليتيم وكم واسى وكم سترا
هو الحلال الذى ينفى الحرام وكم ... حمى من الفُحش أُنثى أو حمى ذكرا
عدِّد إن استطعتَ لكن عادلاً لبقاً ... لا تعطينَّ الهوى سمعاً ولا بصرا
واحكم رعاك اللّه بالحب الصحيح ... تجد مغناك لا غيرة يشكو ولا غيرا
واسأل ضميرك فى أمر التعدد ، لا ... تلجأ لقاضٍ ولا تستأذن البَشرا
إذا جرؤتَ على قاضى السماء فلن ... تكون يوماً بقاضى الأرض مزدجرا

* * *

ضجة مفتعلة ينكرها الدين والواقع

تتبعتُ بشيء قليل من الدهشة اللَّغط الطويل الذى احترف إثارته بعض الناس حول ما يسمى بقوانين الأحوال الشخصية .

وأُريد أن أنفى أولاً وجود هذه التسمية فى ميدان الفقه الإسلامى وأن أرفض الإيماء المقترن بها .

فشرائع الأُسرة ليست أحوالاً شخصية تهم أصحابها وحدهم من حقهم أن يُبقوها إذا شاءوا أو يُغيِّروها إذا شاءوا .

وإذا كان هذا العنوان اصطلاحاً فنياً محضاً فهو ليس من صنع علماء الإسلام ، ويبدو أنه مترجم عن اللغة الفرنسية ولا وجود لكلمة قوانين الأحوال الشخصية فى كتبنا الفقهية كلها .

وندع هذا الاستطراد إلى موضوع حديثنا وهو ما شرع اللّه فى الزواج والطلاق والحضانة والميراث . فنقول فى حسم : إنَّ أى تفكير فى تغيير هذه الشرائع مرفوض جملة وتفصيلاً ، وأنَّ كلمة « تطوير » قوانين الأحوال الشخصية التى لهج البعض بترادها ليست غير إحتيال منكور للانسلاخ من أحكام الإسلام التى نطقت بها النصوص ، وانعقد على تفسيرها الإجماع .

فالزواج بالواحدة إلى الأربع مباح يقيناً لمن يستطيع العدل .

والطلاق حق الرجل لا يمكن لأحد – أن يسلبه إياه .

وللمرأة نصف نصيب الرجل فى الميراث .

والرجل هو رب البيت والقوّام عليه والراعى الأكبر لأولاده .

وما يطلبه النساء اليوم من تغيير لهذه المبادىء الإسلامية ضرب من الغرور يجب أن يُقمع دون هوادة .

وسنرى عند التأمل فى أحوال المجتمع المصرى أنَّ المزاعم حول انهيار الأُسرة المصرية بسبب إباحة التعدد والطلاق مكذوبة من أساسها .

وأنَّ الأُسرة المصرية أشرف سيرة وأنقى جواً من الأُسرة الأوروبية والأمريكية، وأنه - إذا كان هناك ما يُعَكِّر صفو الأُسرة . فهو سلوك المنحلين الذين أطرحوا تعاليم الدين ظهرياً ويريدون إغراء غيرهم بالمروق منها والتمرد عليها .

أما الأُمة فهى تود لو عاشت ظاهراً وباطناً فى حدود دينها العظيم .

لقد سمعنا كلاماً كثيراً حول إساءة الناس لحق التعدد ، ولإباحة الطلاق .

ولا نرد على هذا الكلام بأكثر من ذكر الإحصاءات الرسمية التى تنطق بعكس ما يدَّعيه هؤلاء .. وإلى القُرَّاء الكرام الجدول المثبت فى صفحة ٣٠ من الكتاب الذى أصدرته مصلحة الإحصاء والتعداد (١٩٦٠ - ١٩٦١).

جدول ١٧ - عقود الزواج واشهادات الطلاق

ونسبتها لكل ألف من السكان

السنوات	عقود الزواج		اشهادات الطلاق	
	العدد	النسبة ٪	العدد	النسبة ٪
١٩٤٥	٢٧٥٦٨٦	١٤ر٩	٧٩٩٩١	٤ر٣
١٩٤٦	٢٨٧٩٢٩	١٥ر٣	٨٠٤١٥	٤ر٣
١٩٤٧	٢٦٠٥٨٦	١٣ر٧	٧٥٤٠٤	٤ر٠
١٩٤٨	٢٧٢١٢٨	١٤ر٠	٧٦١٥٤	٣ر٩
١٩٤٩	٢٨٠٤٦٣	١٤ر١	٧٣٨٢٧	٣ر٧
١٩٥٠	٢٧٢٧٩٥	١٣ر٤	٧٤٨٨١	٣ر٧
١٩٥١	٢٥٢٥٢٦	١٢ر١	٧٥٢٧٧	٣ر٦
١٩٥٢	٢٣١٨٤٦	١٠ر٨	٦٩٥٣٨	٣ر٢
١٩٥٣	٢١٦٢٦٨	٩ر٨	٦٢٢٩٦	٢ر٨
١٩٥٤	٢١٩٠٠٦	٩ر٧	٥٩٥٨٠	٢ر٦
١٩٥٥	٢٢٦٣٦٤	٩ر٨	٦٠٣٣١	٢ر٦
١٩٥٦	٢٢٢٠١١	٩ر٤	٥٧١٨٧	٢ر٤
١٩٥٧	٢٤١٤٣٦	١٠ر٠	٥٩٩٤٨	٢ر٥
١٩٥٨	٢٢٨٠١٨	٩ر٢	٦٠٠٤٤	٢ر٤

من هذه الأرقام يتضح لكل ذى بصيرة . أولاً : أنَّ عدد عقود الزواج فى تناقص مستمر برغم أنَّ الزيادة فى عدد السكان مطردة . لقد زاد عدد السكان خلال هذه السنوات الأربع عشرة نحو ثمانية ملايين ، وكان ينبغى أن يصل عدد عقود الزواج إلى أربعمائة ألف . لا أن يهبط إلى مائتى ألف . فالأزمة المخوفة هى قِلَّة الزواج لا كثرته كما يرجف النساء وأشياعهن من الرجال المخدوعين .

ثانيا : إن إشهادات الطلاق التى تمت سنة ١٩٥٨ وعددها ستون ألفاً يجب أن تُذكر معها الحقائق الآتية : أنها تشمل الطلاق قبل الدخول ، وبعده ، والطلاق الرجعى والبائن ، والطلاق بالتراضى أو بحكم القاضى ، وأنَّ التصفية النهائية لهذه الأحوال المتباينة تظهر فى الجدول المثبت صفحة ١٣ من الكتاب الرسمى السابق لمصلحة الإحصاء والتعداد .

جدول ٥ - تعداد السكان حسب الحالة الزوجية والنسبة المئوية لكل حالة إلى الجملة

« الأرقام بالألف »

الحالة الزوجية	١٩٤٧				١٩٥٧				١٩٦٧			
	ذكور	النسبة ٪	إناث	النسبة ٪	ذكور	النسبة ٪	إناث	النسبة ٪	ذكور	النسبة ٪	إناث	النسبة ٪
لم يتزوج أبداً	١٢٠٢	٢٣	٦٦٢	١١	١٠٢٨	٢٤	٤٩٠	١١	٨٩٨	٢٣	٣٦١	٩
متزوج	٣٦٢٨	٧١	٣٧٦٦	٦٥	٣٠٩٧	٧٢	٣١٨٠	٦٧	٢٧٧٧	٧٢	٢٨٩٦	٦٨
مطلق	٦٩	١	١٢٧	٢	٦٠	١	٩٧	٢	٦٦	٢	١٢٠	٣
أرمل	١٣٨	٣	١١٣١	٢٠	١٢٩	٣	٩٣٢	٢٠	١٠٥	٣	٨٧٠	٢٠
غير مبين	٨٨	٢	٩٧	٢	١٠	-	٧	-	١٢	-	٩	-
الجملة	٥١٢٥	١٠٠	٥٧٨٣	١٠٠	٤٣٢٤	١٠٠	٤٧٠٦	١٠٠	٣٨٥٨	١٠٠	٤٢٥٦	١٠٠

* لا يشمل الذكور دون الثامنة عشرة والإناث دون السادسة عشرة .

من هذه الأرقام يتبين أنَّ نسبة المطلقين الذين تخلوا عن تكوين الأُسر نهائياً إلى مجموع المتزوجين أرباب الأسر هى ١ : ٧٢ .

فهل هذا هو الباعث على الصراخ والعويل من فوضى الأحكام الإسلامية كما يفترى هؤلاء الكاذبون على دين اللّه ودنيا الناس ؟

إنَّ لغة الأرقام تكشف عن الفراغ الهائل فى منطق المتهجمين على « قوانين الأحوال الشخصية » كما يسمونها .

وتبيَّن أنَّ هناك بواعث أخرى كامنة فى النفوس هى سر اللُّغط الذى يتجدَّد بين الحين والحين ضد تعاليم الإسلام فى هذا المجال .

ولقد ألقيتُ نظرة على بعض التفاصيل فى إشهادات الطلاق فوجدتُ أنَّ ثلاثة أرباع المطلّقين لا أولاد لهم ألبتة لأنهم طلّقوا قبل الدخول أو بعده والزوجة عقيم أو لما تلد .

وقلتُ للمسئول فى وزارة الشئون : إنَّ هذا الإحصاء قاطع بفساد الادعاء أنَّ الطلاق سبب الأسباب فى تشرد الطفولة ..

فال : لا تنس أنَّ الرُبع الباقى فى حالات الطلاق يخلف وراءه ثلاثين ألف ولد .

فقلت : هل المطلقون الذين لهم أولاد : صعاليك جميعاً . ففيم إذن قضايا النفقة والحضانة التى تُشغل المحاكم ؟

إنَّ الطلاق أبغض الحلال إلى اللّه ، وما نريد أن يلجأ إليه أحد إلا عند اليأس من صلاح ذات البَين .

لكن القول بأنَّ الطلاق سبب أول أو ثان أو ثالث لتشرد الأطفال فى مجتمعنا جرأة مستنكرة وتخبط شائن .

ونعاود السؤال : إذا كان عدد الذين يتزوجون أكثر من واحدة قرابة ٢٪ ، وعدد الذين يطلّقون يهبط بعد التصفية التى كشف عنها الإحصاء إلى مثل هذه النسبة .. ففيم عويل النساء ؟

وفيم فزع بعض الكتبة الذين طالت ألسنتهم فى الإسلام وتعاليمه ؟

ثم لماذا لم نسمع لهؤلاء صوتاً يضيق بإباحة الزنا فى الظروف التى حددها القانون ؟ .

إنَّ الجؤار هناك والصمت هنا دلالة ضمير خائن ونصيحة مغشوشة ، ومن ثَمَّ فنحن نُلفت الأنظار إلى ما ينطوى عليه هذا التناقض الغريب .

قال لى بعض المتحمسين لتقييد الطلاق : إنَّ سهولة الطلاق فى الإسلام يَسَّرت لمن يبغضون زوجاتهم من النصارى أن يتركوا دينهم ويدخلوا فى الإسلام حتى يتخلصوا بالطلاق من الزوجات اللاتى يكرهون .

قلت : كأن التشريع المقترَح محاولة لمنع هؤلاء الفارين من اللجوء إلينا !

لو أنَّ هناك عقلاً راشداً لاتخذنا هذا المسلك دليلاً على أنَّ سلب الرجل حق الطلاق مزلقة لسلبه دينه .

إنَّ عشرات الأمم المسيحية احترمت الواقع وأباحت للرجل الطلاق بعيداً عن التعاليم المتوارثة بين كهنة الكنيسة ، فكيف نفكر نحن أن نضع أيدى المسلمين فى الأغلال التى طرحها غيرهم ؟

وماذا يقع لو قيدنا الطلاق كما يقترح هؤلاء القاصرون ؟

أما يترك نفر من المسلمين دينهم فراراً من الزوجة التى لا يطيقون ؟

بذلك تكون أولى بركات القانون المراد سنه أن نعوق غير المسلمين عن الإسلام ، وأن ندفع بعض المسلمين إلى الارتداد حين يعجزون عن ترك زوجاتهم ، وذلك كله تحت عنوان إرضاء المرأة أو حماية الأسرة !!!!

إنَّ هذا التشريع - لو صدر - فسيكون ذريعة إلى مفاسد هائلة ، وجرائم فاتكة .

وإنَّا لموقنون أنَّ أولى الأمر لن يُخدعوا بهذا الضجيج المصطنع مهما تتابع الصياح واستطال الإلحاح .

بل إنَّ أملنا يتجاوز التزام تعاليم الإسلام بشأن الأسرة إلى إشاعة تعاليم الإسلام فى أرجاء المجتمع كله فتتناول صنوف المعاملات ، وتنفخ روح الشرف والحق فى قوانين العقوبات وسائر التصرفات .

ويومئذ تكون بلادنا قد نجحت فى صد الاستعمار الثقافى ، وعادت سيرتها الأولى تضىء الطريق للحائرين .

* * *